مي زياده

كلمات وإشارات

١



مؤسسة نوفل

حفلة «الكوخ الأخضر»

لا أجرؤُ على رفع كأسي لأنّ مَن رفع كأسه في مثل هذا الموقف وَجب عليه تأدية الثمن كلاماً بليغاً. وأنّى لي البلاغة، أنا التي يتعثّر لساني في اللفظ العربيّ البسيط؟ وكيف أجيءُ بالكلمة المُحكَمة أنا التي لا أعرف شيئاً، وقد فاجأتني عنايتكم بقولٍ جميل منظومٍ ومنثور، وبثناءٍ قد يستحقه عالمٌ قضى عشرات الأعوام في البحْث والتنقيب والإنتاج، ولكنهُ يدهش فتاةً ما زالت عاكفةً على كتب التلمذة الأولى، تستظهر من الدروس ما يستظهره طَلَبَة المدارس الابتدائية تقريباً، وتهيء فروضاً اعتاد التلاميذ تهيئتها خِلال العطلة الصيفية، لم يُبنَ هذا الكوخ لهذه الفروض وتِلك الدروس فحسب وإنما أردتُ أنْ يكون لي أيضاً خَلْوة أحلمُ بها وألعب وألهو. ولكنكم تجمهرتم قربهُ ودشّنتموه كما تدشّن الصُّروح الكبيرة، ورفعتم فوقهُ علَماً يخفق بين الغصون، وأثرتم حوله في هدوءِ الغِياض تصفيقاً وإنشاداً.

ألقيت في الحفلة التي أقيمت في منتصف شهر آب (أغسطس) سنة ١٩١١ في ضهور الشوير بلبنان.

فلمن فعلتم ذلك ؟ ولماذا أنتم فاعلون ؟

لو علمتُ أنّ الاحتفاءَ بي وحدي لحبسَ الخجلُ كلمة الشكر على شفتيّ ولاختلجت يدي وهي تحمل الكأس . ولكني أعلم أنّ الغاية من هذا التكريم أبعد من أن تُحصر في فتاة ، وأعظم من أنْ تُوجَّه إلى فرد . وإنما الغاية منهُ تشجيع الفتاة الشرقية عموماً التي تقولون لها في شخصي إنّ في الشرق روحاً جديدة تطلب نهضتها ، وإنّ عيونكم ترقبها وقلوبكم ترعاها منتظرةً ما ينمُّ عن رغبتها في النهوض أو عن مجرّد مَيْلها إليه ، لتمدّوها بالقوّة والتنشيط الممكن .

دفعتكم هذه الروح الجديدة إلى تحيُّن الفرص فاتخذتموني واسطة ، أيها السادة أعضاء لجنة الاحتفال . اتخذتموني واسطة ، وأردتم أنْ يكون هذا الكوخ حجراً معنوياً في صرح النهضة النسائية ، ورمزتم بهذا العلَم إلى راية تحرير العقول من الخرافات والأوهام ، وما كانت أصوات الهتاف إلاّ أصوات نفوس تحثُّ المرأة والفتاة العصرية على السَّير إلى الأمام . « إلى الأمام ! » هذا ما أردتم أنْ تقولوا .

وأنا التي اتخذتموني واسطة لإظهار هذه الرغبات الحية والعواطف النبيلة أراني الساعة ممتلئة بكرامة وأهمية لم أشعر بها من قبل . تلك نتيجة المسؤولية دواماً . وغداً عندما أعبرُ عتبة هذا الكوخ الصغير التي جعلته حفاوتكم

عظيما ، سأنظر إليه بعينين جديدتين فيتخذ انفرادي فيه معنى أسمى وأجلّ من أحلام الفتاة وأهوائها وألعابها . لأنكم نبّهتموني إلى أنه على فتاة هذا الجيل أنْ تهدم حدودَ شخصيتها الفردية الضئيلة لترى المجموع ممثّلاً في ذاتها : فتلتفع لتنفعه ، وتسير المسيّره ، وترتقي لترقّيه .

كلّكم تقريباً ، أيها السادة أعضاء لجنة الاحتفال ، من أبناء سوريا الذين انطلقوا إلى ما وراء البحار باحثين عن ميدان واسع يمرّنون فيه قوى نشاطهم وذكائهم الفطريّ . وها قد ألقيتم ، خلال إقامتكم القصيرة في بلادكم ، شرارة الحياة في دائرة الحركة النسائية . ستعودون أنتم إلى ديار استوطنتموها ولكن الشرارة هنا لن تخمد .

وبالشخصية الجديدة التي أنلتموني أرفعُ الجبهة عالياً وأرفع الكأس بيد ثابتةٍ ، والفخر فيّ يتغلب على التأثر والخجل ، وأشرب نخبكم جميعاً . شاكرةً اللجنة التي نظّمت هذا الاحتفال ، والأمير قبلان أبي اللمع الذي تصدّره ، والخطباء الذين جمّلوه ببيانهم ، والسادة والسيدات الذين زانوه بحضورهم . ولما كان من أهم دواعي سروري أن أرى مصر وسوريا متحاذيتين في هذا الاجتماع ، وأنْ أسمع الخطيب المصري يتلو الخطيب السوري مشتركين في الهتاف لمصر وسوريا على هذه القمة البعيدة ، فإني أشرب أيضاً نخب القطرين الشقيقين في هذه الجرعة الواحدة : لتحيَ مصر وسوريا ! ولتحيَوا جميعاً !

حفلة بكفيا

لساني قاصرٌ لا يهتدي إلى الكلمات المعبّرة عما يهزني من عوامل التأثر والشكر لأهل هذه البلدة الجميلة الذين خصوني بالتفات رقيق فأقاموا في هذا العيد العظيم هذه الحفلة الأنيقة التي جعلت العيد عندي عيدين. ويا ليت لي بعض ما عند حضرات الخطباءِ والشعراءِ من الفصاحة والبراعة، إذن لقابلت درر أقوالهم بالمثل، ولما وجدتني متلعثمة في هذا الموقف.

لو كان عندي أزهار، أيها السادة والسيدات، لقدمت إلى كلّ واحد وواحدة منكم زهرة تنطق بنضرتها عن شعوري. لكنّ الأزهار عندي قليلة جُمعت في هذه الطاقة الواحدة، وأنتم كثيرون. وزهرات الحدائق تعيش يوماً وتموت في غده، أما زهرات العواطف فتبقى على نضرتها دواماً. فاقبلوا إذاً أزهار شكري القلبيّ وأسمى عواطف امتناني. ودوموا سعداء يمرُّ بكم هذا الموسم عاماً بعد عام وأنتم أبداً صاعدون في معارج العزّ والفلاح.

* * *

ألقيت في الحفلة التي أقيمت مساء ١٥ آب (اغسطس) (يوم عيد العذراء) سنة ١٩١٢ في بكفيا بلبنان.

أيها السادة والسيّدات ،

أجل ، شرقنا جميل ولكن الروح الشرقية التي تحييه أجمل منه . ومياه الشرق عذبة ، وأعذب منها العواطف الغزيرة المتدفقة في صدر الشرقيّ . وكل ما في الشرق من جبال وأودية ، من مروج وسهول ، من أنهار وأشجار بهيٌّ بهج ، وأبهى من كل ذلك وأبهج ، تلك المكارم الكامنة في ثنايا الروح الشرقية . والتاريخ الشرقي تاريخ مجد وفخر ، ولكنّ هناك شيئاً أعظـــم منه وهو الذكاء الشرقي الذي أوجد التاريخ .

هلاّ ذكرتم يوم كانت بلادنا نـــبراس الأُمم وقائدة الشعوب ؟ هلاّ ذكرتم يوم كانت بلادنا مهد العلوم والصنائع والفنون ؟

على شواطئنا هــذه ، على شواطيء فينيقيا القديمة ، ترعرع الفكر البشريّ وأطلّ الرقيُّ من بين غيوم الجهل والخمول . كان البحر قبـل الفينيقيين عصيّاً فعالجته همتهم القعساء فأطاع ، وسيّروا فيه سفنهم طولاً وعرضاً حاملين إلى بلاد قامت على شواطئه ثمرة أتعابهم الفكرية واليدوية ومباديء المعارف الاجتماعية .

انحنى الفينيقيون على الأرض فشقّوا أديمها مستخرجين من أحشائها الثروة والغلال ، وتصرّفوا بالمياه الضائعة في جوفها فاستخدموها لتعزيز الزراعة . لمسوا الصخر فلبّى

صاغراً ، وحدّقوا في العناصر فانقادت لهم ، وما زالوا يكدّون ويستنبطون حتى وضعوا للمستقبل قاعدة ارتقاء متينة .

نعم ، هنا ابتسم الرقي ابتسامته الأولى ، وهنا خطا التقدم خطوته الأولى ، ومن هنا نقلت مباديء العلوم والفنون والصناعة والتجارة إلى اليونان ، إلى الرومان ، إلى العالم .

قبل فينيقيا لم يكن يعرف أهل الحبشة قيمة ما عندهم من عاج ومواد ثمينة أخرى ، فسارت إليهم قوافل الفينيقيين فانتبهوا وتيقّظوا .

قبل فينيقيا لم يعرف أهل الجزر البريطانية معنى التجارة ، وظلّوا جاهلين وجود معادن بها يقوم غنامم حتى ذهب إليهم قدموس التاجر الفينيقيّ على ظهر سفينته السوداء ، فألفتهم إلى ما لديهم وعلّمهم أساليب التجارة .

قبل فينيقيا كان الفكر البشريّ محدوداً مقيّداً عاجزاً عن إبراز نفسه إلى عالم الوجود لصعوبة الكتابة الهيروغليفية . فلخّص الفينيقيون تلك الرسوم الهيروغليفية العديدة في الحروف الأبجدية ، جاعلين لكل مقطع صوتي حرفاً . ومن الحروف تتألف الكلمات ، ومن الكلمات تتركب الجمل ، وبين الجملة والجملة على صفحات الأوراق تتجلى الأرواح ، وتخفق القلوب ، وتسيل الدموع ، ويسطع الفكر الإنسانيّ بأنواره الباهرة .

كذلك حملت فينيقيا إلى اليونان مبادىء الفنون المختلفة، وعلّمت الأمم أساليب الاستعمار . فهل نحن ذاكرون أنه علينا أنْ نستخرج من مستقبلنا تاريخاً لا يخجـــل حياله التاريخ القديم ؟

* * *

لقد قال عنّا أهل الغرب ما قالوا فدعهم يَفْترون !
إنّ لكل أمة خطةً سنّتها أقـدار الحياة ، وكل ما في الكون متموّج إلى الأبـد : فالأرض متموّجة وأمواجها الجبال والسهول ،

والمياه والبحار متموّجة وأمواجها دوائر ودُوّام ومدٌ وجزر ،

والاثير يتموج ناقـلاً في تيه الفلك الأصوات والأنوار والحرّ والبرد ،

وفي المادة تتموج العناصر الكيماوية تموُّجاً عجيباً ،

والنفس الإنسانية متموجة بعواطفها وأفكارها ورغائبها وميولها .

وكذا أحوال الشعوب تصعد وتنحدر ، وترتقي وتنحطّ، وتتقدم وتتقهقر . فمـــا من أمة بلغت شأواً من الحضارة بعيداً إلاّ عادت تتراجع أو تتوقف عن المسير زمناً فيه تسبقها الأمم الأخرى . غير أنّ هذه الموْجات العُمرانية الواسعة لا تراها وتثبتها الا العصور البعيدة .

توقّف الشرق زمناً فقال الغرب : « هوذا الشرق في سُبات عميق يشبه الموت » . لكنْ لم يلبث أن نفض الشرقُ عنه أكفان الهوان ونهض نهضة أدهشت من كان يحسبنا في غفوة لا تعقبها يقظة . فبلغت اليابانُ اليوم مبلغ أرقى الأمم في علومها وصناعاتها ونظاماتها ، وفي تأهّبها لدفع الطوارىء فملكت ناصيَة القوتين الهائلتين : الأدبية العلمية والوحشية الحربية . وها هي الصين المائجة بسكّانها كالنمل تنهض بثورتها الحاضرة ، بعد جمود طويل ، نهضة يُرجى منها كل خير . هذا في الشرق الأقصى ، أمـــا في الشرق الأدنى فكلّنا يذكر الثورة العثمانية وإنْ لم تأتنا بكل ما توقّعناه من حسن النتائج . والخلاصة : إنّ المطلع على تاريخنا منذ نصف قرن ، يعلم أن الفرق بين ما كنا عليه وصرنا اليه كبير .

* * *

الثورة العثمانية ! تلك الحركة العظيمة غير الدموية التي أذهلت الغرب ، لم نستفد منهـــا كثيراً لأن الأمة لم تشترك فيها اشتراكاً محسوساً ، بل كانت حركة عسكرية قُصِر التبديل فيها على هيئة الحكومة ، لكنها لم تغير من أخلاقنا شيئاً . يجب أن تكون الثورة فردية داخلية قبل أنْ تصير قومية عمومية : ثورة في الأفكار ، ثورة في المبادىء ، ثورة في الاحتياجات ، ثورة في المطالب ، ثورة في كيفية المعيشة .

يجب أنْ نغيّر طباعنا قبل أنْ نغيّر حكّامنا ، يجب أنْ يعكِف كلّ على إصلاح نفسه قبل أن يتصدى لإصلاح الجمهور ، يجب خصوصاً أنْ نفهم معنى التضامن ، وأنْ نتكاتف ليس لغايات شخصيّة بل للخير العام ، والمصلحة العامة التي تشمل العدوّ والصديق والبعيد والقريب ، بل تشمل أبناء الوطن على الإطلاق . والتضامن من ارتقاءِ الجمهور بمثابة الاعتماد على النفس من ارتقاء الفرد . وما أقدر الذكاء والتضامن إذا هما مشيا جنباً إلى جنب !

* * *

والآن وقد فرغتُ من الكلام فأعزّ ما أتمنى هو أنْ أرى أبناء الوطن مُتّحدي الكلمة ، موحدي الغاية ، مترابطين بالتضامن والتعاون ليعيدوا للشرق عزّه الغابر ومجده القديم .

وتحيتي الأخيرة إلى لبنان . لبنان ! يجب أنْ أنحني لهذه الكلمة العذبة المحبوبة ،

لبنان ! هي كلمة واحدة ، هي لفظة صغيرة ، ولكن كل الحب وكل الرجاء فيها لأنها اسم الوطن الغالي .

لبنان ! الأمواج الزرقاء الطريه تلثم قدمه ، والثلوج البيضاء الطاهرة تكلّل جبهتهُ ؛ في صدره قبور الجدود

والأحباب ، والتربة منه تعطف على بقاياهم عطف الأم على رضيعها . وعلى أكتافه يتنقّل أبناؤه الأحياء أقوياء بالهمة والنشاط والأمل . ومن هؤلاء ينتظر شبيبةً ذكيةً مفكرة عاملة ، ومنهم ينتظر مستقبلاً سعيداً وحياةً ومجداً .

فليحي لبنان ، وليحي الشرق !

تكريم خليل مطران

الشاعر البعلبكي

١

في مدينة بعلبك ١١٢ قبل الميلاد

جلس الأمير على عرشه الذهبي المحاط بالمسارج المشتعلة والمباخر المتّقدة ، فجلس القوّاد والكهّان عـن يمينه وشماله ، ووقف الجنود والعبيد أمامه وقوف الأنصاب أمام وجه الشمس .

وبعد هنيهة وقد انتهى المرتلون من إنشادهم ، وتوارت أنفاسهم بين طيّات أثواب الليل ، وقف كبير الوزراء أمام الأمير ، وقال بصوت تهدجه ضآلة الشيخوخة :

أرسل هـذه المقالة كاتبها إجابة لطلـب سليم سركيس ، الذي دعا شعراء العالم العربي وكتّابه إلى الاشتراك بتكريم خليل مطران ، بإرسال نفثات أقلامهم لتتلى في الحفلة الـتي ستقام له لمناسبة الإنعام عليه بالوسام المجيدي الثالث . وقد تليت هذه المقالة مع التعليق عليها في تلك الحفلة الفخمة الـتي أقيمت في سراي الجامعة المصرية مساء ٢٤ نيسان (ابريل) سنة ١٩١٣ .

« أيها الأمير العظيم ، قد جاء المدينة بالأمس حكيم من حكماء الهند ذو أطوار غريبة ومذاهب جديدة لم نسمع قط بمثلها . فهو يدعو الناس إلى الاعتقاد بتقمص الأرواح من جسد إلى جسد ، وانتقال النفوس من جيل إلى جيل حتى تبلغ الكمال ، وتصير إلى مصفّ الآلهة . وقد جاء الليلة طالباً الدخول عليك ليبسط تعاليمه أمامك » .

فهز الأمير رأسه ، وقال مبتسماً :

« من بلاد الهند تأتي الغرائب والعجائب فأدخلوه لنسمع حجّته » .

ولم تمر دقيقة حتى دخل القاعة كهل أسمر اللون ، مهيب المنظر ، ذو عينين كبيرتين وملامح مُنْفرجة ، تتكلم بلا نطق عن أسرار عميقة وأميال غريبة . وبعد ان انحنى مستأذناً ، رفع رأسه وتلمّعت عيناه وطفق يتكلم عن بدعته ، مظهراً كيف تنتقل الأرواح من هيكل إلى هيكل مرتقية بعوامل الوسط الذي تختاره ، متدرّجة بتأثيرات الأمور التي تختبرها متمايلة مع الأمجاد التي ترفعها وتقويها ، نامية مع الحب الذي يسعدها ويشقيها ... ثم تطرّق إلى كيفية انتقال النفوس من مكان إلى مكان ، باحثة عما تحتاج إليه من الكماليات ، مكفّرة في حاضرها عن ذنوب اقترفتها في ماضيها ، مستغلّة في بلد ما زرعته في بلد آخر .

ولما طال الكلام وقد بدت على ملامح الأمير سيماء

الملل والضجر ، اقترب كبير الأمراء من الحكيم وهمس في آذنه قائلاً « كفى الآن فدع البحث إلى فرصة ثانية » .

فتراجع الحكيم إلى الوراء وجلس بين الكهان مطبقاً أجفانه كأن عينيه قد تعبتا من التحديق في خفايا الوجود وأسراره .

وبعد سكينة شبيهة بغيبوبة الأنبياء ، تلفّت الأمير إلى اليمين وإلى اليسار ، ثم سأل قائلاً « أين شاعرنا فقد مرّ زمن ولم نرهُ .. ماذا حلّ به وكان يحضر مجلسنا كل ليلة ؟ » .

فقال أحد الكهان « قد رأيته منذ أسبوع جالساً في رُواق هيكل عشتروت وهو ينظر بعينين جامدتين كئيبتين نحو الشفق البعيد كأنه أضاع بين الغيوم قصيدة من قصائده » .

وقال أحد القواد « قد رأيته بالأمس واقفاً بين أشجار السّرْوِ والصفصاف ، فحييته ولم يرد التحية بل ظلّ غارقاً في بحر أفكاره وأحلامه » .

وقال رئيس الخصيان « قد رأيته اليوم في حديقة القصر ، فدنوت منه فوجدته أصفر اللون شاحب الوجه ، تُراود الدموع أجفانه وتتلاعب الغصّات بأنفاسه » .

فقال الأمير بصوت تلاحقهُ اللهفة « إذهبوا وابحثوا عنه وعودوا به مسرعين فقد أشغل بالنا أمره » .

خرج العبيد والجنود يبحثون عن الشاعر ، وظل الأمير وأعوانه صامتين حائرين مترقبين كأن نفوسهم قد شعرت بوجود شبحٍ غير منظور منتصب في وسط تلك القاعة .

وبعد هنيهة عـاد رئيس الخصيان وارتمى على قدمي الأمير كطائر رماهُ الصيّاد بسهم ، فصرخ بـه الأمير قائلاً « ما الخبر . ماذا جرى ? » .

فرفع الزنجي رأسه وقال مرتعشاً : « قد وجدنا الشاعر ميتاً في حديقة القصر » .

فانتصب الأمير وقد علت سحنته سيماء الحزن والكمد ، ثم خرج إلى الحديقة يتقدمهُ حاملو المسارج ويتبعه القواد والكهان . ولما بلغوا أطراف الحديقة حيث أشجار اللوز والرمان ، جلت لهم أشعةُ السُرج الصفراء جثة هامدة مرتمية على الأعشاب كغصن ورد ذابل .

فقال أحـد الأعوان « أنظروا كيف عانق قيثارته كأنها صبية حسناء أحبهـا وأحبته فتعاهدا على أن يموتا معاً » .

وقال أحد القواد « لم يزل يحـدّق في أعماق الفضاء كعادته كأنه يرى بين الكواكب خيال إله غير معروف » .

وقال رئيس الكهان مخاطباً الأمير « غـداً نقبره في ظِلال هيكل عشتروت المقدسة . فيسير سكان المدينة وراء نعشه ، وينشد الفتيان قصائده ، وتنثر العذارى الأزهار على ضريحه . لقد كان شاعراً عظيماً فليكن احتفالنا بدفنه

عظيماً » .

فهزّ الأمير رأسه دون أنْ يحوّل عينيه عن وجه الشاعر المتشح بنقاب الموت ، ثم قال ببطء « لا . لا ، لقد أهملناه إذ كان حياً يملأ جوانب البلاد من أشباح نفسه ، ويعطر الفضاء بأنفاسه ، فاذا ما أكرمناه ميتاً تسخر بنا الآلهة وتضحك منا عرائس المروج والأودية .. ادفنوه ههنا حيث فاضت روحه ، وابقوا قيثارته بين ذراعيه ، وإنْ كان بينكم من يريد أنْ يكرّمه فليذهب إلى بيته ويخبر أبناءه بأنّ الأمير قد أهمل شاعره فمات كئيباً وحيداً منفرداً » .

ثم التفت حوله وزاد قائلاً « أين الفيلسوف الهندي ؟ ».

فتقدّم الفيلسوف وقال « ها أنذا أيها الأمير العظيم ».

فقال الأمير « قلْ – قل أيها الحكيم – هل ترجعني الآلهة أميراً إلى هذا العالم وتعيدهُ شاعراً . هل تلبس روحي جسد ابن مليك عظيم ، وتتجسم روحه في جسد شاعر كبير ؟ هل توقفه النواميس ثانية أمام وجه الأبدية لينظُم الحياة شعراً ، وتعيدني لأُنعم عليه وأفرح قلبه بالمواهب والعطايا ؟ » .

فأجاب الفيلسوف قائلاً « كل ما تشتاقه الأرواح تبلغه الأرواح . فالناموس الذي يعيد بهجة الربيع بعد انقضاء الشتاء سيعيدك أميراً عظيماً ويعيده شاعراً كبيراً » .

فانفرجت ملامح الأمير وانتعشت نفسه ، ثم مشى نحو

قصره مفكـّراً في أقوال الحكيم الهندي محدّثاً ذاته بقوله «كل ما تشتاقه الأرواح تبلغه الأرواح» .

٢

« في مصر — القاهرة سنة ١٩١٢ للميلاد »

طلع القمر وألقى وشاحه الفضي على المدينة ، وأمير البلاد جالس في شرفـة قصره ، ينظر إلى الفضاء الصافي مفكراً في مآتي الأجيال الـتي مرت متتابعة على ضفاف النيل ، مستوضحاً أعمال الملوك والفاتحين الذين وقفوا أمام هيبة أبي الهول ، مستعرضاً مواكب الشعوب والأمم التي سيّرها الدهر من جوانب الأهرام إلى قصر عابدين .

ولما اتسعت دائرة أفكاره وانبسطت مسارح أحلامه ، التفت نحو نديمه الجالس بقربه وقال « في نفسنا الليلة مَيْل إلى الشعر فأنشدنا شيئاً منه » .

فحنى النديم رأسه وأخذ ينشد قصيدة لشاعر جاهلي ، فقاطعه الأمير قائلاً « أنشدنا شعراً أحدث عهداً » .

فانحنى النديم ثانية وابتدأ يردّد أبياتاً لأحـد الشعراء المخضرمين .

فقاطعه الأمير أيضاً وقـال « أحدث عهداً ، أحدث عهداً » .

فانحنى النديم للمرة الثالثة وأخذ يترنم بمقاطيع موشح أندلسي .

فقال الأمير « أنشدنا قصيدة لشاعر معاصر » .

فرفع النديم يده إلى جبهته كأنهُ يريد أنْ يستحضر إلى حافظته كل ما نظمه شعراء العصر ، ثم برقت عيناه وتهلّل وجهه ، وطفق يرتّل أبياتاً خيالية ذات رنة سحرية ومعانٍ رقيقة مبتكرة ، وكنايات لطيفة نادرة تجاور النفس فتملأها شعاعاً ، وتحيط بالقلب فتذيبه انعطافاً .

فحدّق الأمير في نديمه ، وقد استهوته نغمة الأبيات ومعانيها ، وشعر بوجود أيدٍ خفية تجذبه من ذلك المكان إلى مكان قصيّ . ثم سأل قائلاً « لمن هذه الأبيات ؟ » .

فأجاب النديم « للشاعر البعلبكي » .

— الشاعر البعلبكي !

الشاعر البعلبكي .. كلمتان غريبتان تموّجتا في مسامع الأمير وولّدتا في داخل روحه النبيلة أشباح أميال ملتبسة بوضوحها ، قوية بدقتها .

الشاعر البعلبكي .. إسم قديم جديد أعاد إلى نفس الأمير رسوم أيام منسيّة ، وأيقظ في أعماق صدره خيالات تذكارات هاجعة ، ورسم أمام عينيه بخطوط شبيهة بثنايا الضباب صورةَ فتى ميت يعانق قيثارة وقد وقف حوله القواد والكهان والوزراء !

وامحت هذه الرؤيا أمام عيني الأمير مثلما تتوارى الأحلام بمجيء الصباح ، فوقف ومشى جامعاً ذراعيه على صدره مردّداً آية النبي العربي : « وكنتم أمواتاً فأحياكم

ثم يميتكم ثم يحييكم ثم إليه ترجعون » .

ثم التفت نحو نديمـــه قائلاً « يسرّنا وجود الشاعر البعلبكي في بلادنا وسوف نقربه ونكرمه » .

وزاد بعد دقيقة بصوت منخفض « إنما الشاعر طائر غريب المزايا يفلت من مسارحه العلوية ويجيء هـذا العالم مغرّداً فـإنْ لم تكرمه يفتح جناحيه ويعود طائراً إلى موطنه » .

. انقضى الليل ، فخلع الفضاء أثوابه المرصعة بالنجوم ، ولبس قميصه المنسوجة من أشعـة الصباح ، ونفس . أمير البلاد تمايل بين عجائب الوجود وغرائبه ، وخفايا الحياة وأسرارها .

نيويورك جبران خليل جبران

التعليق على

الشاعر البعلبكي

قدّم سليم سركيس هذا التعليق الذي نشره في مجموعة ما أرسل إليه لتكريم خليل مطران بما يلي :

« لمـــا جاءتني مقالة جبران خليل جبران نزيل نيويورك ، سألت الآنسة مي أنْ تتلوها في الاحتفال فأجابت طلبي وبعد أنْ فرغت من تِلاوة المقالة عادت فذيّلتها بكلمات صاغها قلمها وأبدعها خاطرها ، ولم يكن التعليق الذي ألقته حضرتها قد جاءني عند تقديم الخطبة الاولى للطبع فبادرت إلى نشر كلمـــات الآنسة مي في هذا المكان » قالت :

* * *

هنا انتهيت من تِلاوة مـــا كتبه الشاعر اللبناني نزيل نيويورك . إنّ الأمير فعل الآن ما ندم الأمير القديم على إهمـــاله . ـ فجاء إحسانه إلى الشاعر البعلبكي مصداقاً لقول الحكيم الهندي : « كل ما تشتاقـــه الأرواح تبلغه الأرواح » .

وصدَى الكلمات الأخيرة التي تموّجت في مسامعكم ، أيها السادة ، ما زال يرنّ على أبواب فؤادي مثيراً فيه

ميلاً إلى الكلام ، منبتها في أعماقــه شبه قوة اكتفت بالاصغاء حيناً وهي تحاول الانقلاب إلى همس ، إلى نغْمة ، إلى صوت إنسيّ ينقل إلى عـالم السمع سرائر التأثيرات النفسية .

في هذا الاجتماع البهيّ لم نسمع إلا أصوات الرجال مادحة ، مقرّظة ، معجبة ، شاكرة ، مفتخرة . وصوتي — الصوت الوحيد الغريب بين تلك الأصوات القوية الجميلة — إنما ارتفع ليقوم مقام صوت رجـل غائب . والآن أريد أنْ أتكلم بنفسي وبصوت جنسي .

أُريد أنْ أضمّ إلى صوت الفِكر العظـيم الذي ترتجّ لدويّه دقائق الفضاء ، صوت القلب الخفيّ المرتجف الذي ترتعش لمروره ذرات الكيــان ، وتطرب لصداه خفايا الأرواح .

لقد أهمل الأمير القديم شاعره فمات وحيداً كئيباً ، لكن الأمير عطف على الشاعر البعلبكي فأحيـا بعطفه هذا آمالنا بتقدم الآداب وارتقاء الأفكار والعواطف . النبوغ قوة سامية يهبها الله من يشاء من أفراد الأمـة ؛ النبوغ شعلة إلهية تضيء ظلمات الفوضى الـتي نجد آثارها في كل زمان ومكان لتضارب الآراء واختلاف المذاهب الفِكرية . غير أنّ تلك القوة السامية تذبل وتجف وتموت إنْ لم يرطبها إعجاب الجمهور . الشعلة الإلهية التي تحاول ملاشاة ما يحيط بها من الظلمات الغدافية (١) تنطفىء إنْ لم تلق نسيم

(١) الشديدة السواد

استحسان تتغذى من عنصره السري وتنمو بجوهره الناري . وإنْ وجد في تلك الشعلة قوة ذاتية تغذيها وتنميها إلى حين فهي لا تلبث حتى تحرق نفسها بنفسها مطفئة لهيبها بدموعها ، مبيدة حياتها بيأسها ، وكانت الشعوب بذلك خاسرة .

فاذا كان بينكم ، أيها السادة ، من يريد إكرام النبوغ الذي نحيّيه اليوم وتربية عاطفة الشكر في صدور الرجال فليذهب إلى بيته ويعلّم أبناءه ترتيل القصائد الخليلية ، ويضع بين شفتيّ صغاره رنات تلك الأسجاع الموسيقية .

* * *

والآن لديّ باقتان : إحداهما صغيرة أنيقة ، جمعتُ زهراتها الزرقاء النحيفة على ضفاف نهر الإخلاص الجاري في سهول الإعظام والإجلال كما يجري النيل الفائض بدموع إيزيس في رياض أوزيريس . تلك الزهرات النضرة هي إشارات حبنا لسماء مصر العزيزة .

* * *

والباقة الثانية أهديها إليك أيها الشاعر العذب . زهراتها – أنظر إليها تعرفها – ليست إلاّ نثرات من روحك الجميلة . نثرات من روحك وبها أعني حميتك وأحلامك ، دموعك وتنهداتك ، يأسك وآمالك .

كم من ليلة غادرتُ العالم الحسيّ لأطير معك إلى تلك

العوالم البعيدة القريبة المملوءة أنواراً وطرباً ! كم من ليلة قضيتُها منحنيةً على كلومك الشّعرية أراقبُ دماء أحزانكَ السائلة أنغاماً وألحاناً ! كم من مرة مِلتُ أستنشق رائحة دموعك وأحلل ألوان أشجانك ؛ ولأشجانك ألوان بديعة ساحرة كألوان الشروق والغروب ، ولدموعك أريج عَطِر مسكر كأرواح الزنبق والفل والياسمين !

هذه باقتي . خذْها . إنما هي بعض ما تركته أنغام شاعر كبير في نفس فتاة شجيّة .

وكلمتي الأخيرة أوَجّهها إليكم ، أيها المصريون الكرام. نحن ضيوف عندكم ، نزلاء في بلادكم ، لكن كرمكم وإخلاصكم ذكّرانا بأنّ للمواطن أوطاناً اذا تجاورت الأحبّة . فعرفنا كنوز نفوسكم ، واقتبسنا بعض عاداتكم ، وتعشّقنا موسيقى لهجتكم وأحببنا مصر لأننا أحببناكم .

هذه يدي أضمها إلى الأيدي السورية التي تمتد اليوم لمصافحتكم . ومياه سوريا ، وغاباتها ، وقممها الشمّاء تحييكم الآن بصوتي ، الفتاة — بصوت الفتاة المرتجفة الواقفة أمامكم — مرددة : دوموا والكرم رضيع قلوبكم ، والعظمة ربيبة نفوسكم !

دوموا مصريين ، يا أبناءَ النيل العظيم !

المرأة والتمدّن

كلمة شكر أقدمها إلى سعادة رئيس هـذا النادي سكاكيني باشا.. وحضرات أعضائه الكرام . إني أشكر لهم حسن ظنهم بي . وألبي الدعوة الـتي شرفوني بها بغاية السرور . حسن أنْ يقف المرء في وسط قومه ، ولو مرة في العمر ، مناجياً من نفوسهم ذلك الجزء الأكثر حساً بما يتراكم على قلبه من الأفكار الجميلة المضنية ، ساكباً أمامهم بعض مـا يجول في نفسه من الأماني العزيزات والرغبات الحارات .

ناد شرقي يزينه حضورٌ شرقيون . إنّ نفسي الشرقية لتهتز طرباً لهذا الموقف ، وسأتكلم بصراحة وثقة كأني الطفلة الأولى من عائلة كبيرة ذات لطف وتسامح . طفلة تتكلم بلا خوف ولا وجل مستسلمة لرعاية من هم حولها ، مستبشرة بدلائـل الانتباه البادية في أنظارهم وابتسامة التشجيع المرتسمة على شفاههم . ولا محـل للعجب إذا تجاسرت على الكلام في ليلة تسمعكم صوت الدكتور نمر .

ألقيت في حفلة أقامها « النادي الشرقي » في القاهرة ليلة الثالث والعشرين من نيسان « ابريل » سنة ١٩١٤ أمام جمهور غفـير من أعضاء النادي ، والسيدات زوجاتهم وبناتهم .

إنّ الساقية الصغيرة لا تفقد معناها قرب النهر الكبير ، بل إنّ جمال تدفقه يكسب ضعفها قوة ، وتعطيها جيرته مجداً وفخراً .

الموضوع

أيها السادة والسيدات ،

نحن في فصل الربيع والحياة تنبض بقوة في كل جزء من أجزاء الكون . ونيسان رسول الجمال ونبي النشّور ، يسلم أنفاسه الأخيرة تاركاً جماله وأنواره في ذمـة أيار ؛ ملك الورود . اذاً لست بحاجة للبحث عن موضوع أحدثـكم به ، فان الفصل المار بنا يوحي إليّ موضوعاً جميلاً . الأزهار ، تلك المخلوقات العجيبة التي لا تراها نفس حساسة إلاّ وتشعر بأنها إزاء سر غامض قد التف بألوان الحدائق والرياض ، وستر معانيه بعطورها .. على أنّ الوقت ليل ، ورداء الظلام يحجب عن النواظر وضوح الأشياء . والأزهار التي تفتح في النهار وريقاتها كأعلام نصر منشورة ، تنكمش لملامسة الليل ، لأنّ رطوبة الليل تُذبلها . لكني سأبدلها بزهرة أوفر منها جمالاً ، وأتم شكلا ، وأدعى الى التفكير ، وأحرى باهتمام ذوي القلوب الغيورة الرحيمة . تلك الزهرة التي تضم في كيانها آيات الحسن الكبرى ، وأسرار الحنان الذي لا يدرك ولا ينقضي . تلك الزهرة التي يعذّبها ظمأ الحرية ، وتتجاذبها العواصف ، وتتقاذفها صرعات الزمان منذ أجيال طوال ، فلا ينقصف غصنها ولا يلتوي . تلك

الزهرة النارية التي تناول الدهور آمال المستقبل ، وتنقلُ من ذرية إلى ذرية قبس الحياة العظيم .

لقد عرفتم تلك الزهرة العجيبة ، هي المرأة !

تقهقر نصف الانسانية

أيها السادة والسيدات .

لقد طافت المدنية أنحاء العالم ، وتلألأت أنوارها في القارات الثلاث تباعاً : في الشرق حيث جعلت أحاديث الأقدمين الفردوس الأرضي ، اتقدت شرارتها الأولى فكانت المدنية كالشمس بازغة من بلادنا . وبعد أنْ نقلت خطوتيها الأوليين الجيدتين في آسيا وافريقيا ، تناولتها يد أوروبا ورفعتها في جو الجهل المظلم ، وهزتها كقبس سحري قائلة : « أنيري العالم ! » فاستنار العالم وغمرنا ضياءُ العلم الساطع . وكأني بالمدنية ذكرت أنها أكثرت من الحسنات إلى العالم القديم ، فذهبت تسعى إلى ما وراء البحار البعيدة ، في ذلك العالم الجديد الذي لا تقاليد تقف عثرة في طريق نجاحه ، ولا هو موثق بسلاسل عادات قديمة تجعل الحياة على عاتق الأحياء عبئاً ثقيلاً . في ذلك العالم البكر ، الذي قال فيه أحد كبار المفكرين : « إن كولمبس اكتشفه بينما كان لوثر يحاول هدم العالم القديم . »

أجل . لقد طافت المدنية أنحاء العالم ، ولكن ما حالنا بها ؟ لقد ظهرت معجزاتها في اكتشافات البشر

وعلومهم وفنونهم وأساليبهم وكيفية معيشتهم ، إلاّ ان الشقاء ما زال شقاء ، ما زلنا نشاهد حولنا الحرب والفقر والمرض والقتل والانحطاط النفسي ، والعاهات الأخلاقية على تعدد أنواعها . وما برحت الشعوب تشكو حكوماتها ، والأوطان تشقى بابنائها ، والعائلات تتعذب بأفرادها ، والأفراد تتوجع بميولها وتشقى بغرائزها المتناسخة عن وراثات بعيدة وقريبة . كلا ! إن المدنية لم تأت بتمام واجبها بعد ، ولم تصلح من الأحوال إلاّ البعض اليسير أو المتوسط . وأنتم أيها السادة والسيدات ، تعلمون سبب ذلك النقص وتعرفون موضع الضعف من مدنية القرون المنصرمة . ذلك الضعف الشائن والنقص الهائل ليس إلاّ تقهقر نصف الإنسانية ، هو جهل المرأة .

قال هيجو : ليس الرجل وحده الإنسان ، ولا هو المرأة وحدها ، بل هما الإنسان ، والإنسان هما . كل جنس دون أخيه نصف فقط ، ولا يصير عدداً كاملاً إلاّ إذا أضيف إليه النصف الآخر . لا صحة للمرء إلا بسلامة دماغه وقلبه ، ولا سعادة للرجل إلاّ بسعادة المرأة .

تاريخ المرأة استشهاد طويل

كيف كان يراها المتقدمون ومنهم أفلاطون ؟

سعادة المرأة !

سل عنها الدهور المتدحرجة في هاوية الزمان ، لو كان

للدهور لسان لأنبأتك بمـا يدمي الفؤاد . المرأة ! لقد جعلتها الهمجية حيواناً بيتياً ، وحسبها الجهـل متاعاً ممتلكاً للرجل يستعمله كيفما شاء ، ويهجره إذا أراد ، ويحطمه إذا خطر له في تحطيمه خاطر . كانت بعد ذلك عبدة شقية وأسيرة ذليلة ، ثم ارتقت مع مرور الأجيال إلى درجة طفلة قاصرة ، إلى لعبة يلهو بها السيد في ساعات الفراغ ، إلى تمـثال بهرجةٍ تتراكم عليه الأثواب الحريرية والجواهر الثمينة . ومن منا يدري بما كانت تستره الأثواب الحريرية والجواهر الثمينة من قروح القلب الدامية الـتي لم يضمدها بشر ؟

تاريخ المرأة استشهاد طويل أليم ، ومن أغرب الغرائب أنها لم تجد لها في القدم صديقاً ولا نصيراً . كانت عامة الشعب تكرهها وتحتقرها وليس ذلـك بكثير على قوم جاهلين ، تحجرت منهـم القلوب وصمت الأفهام ، فهُم لا يدركون شيئاً مما يتجاوز دائرتهم الصغيرة ، لكني أرى الأمر عجيباً ، بل فظيعاً ، من رجال نحسبهم نوابغ زمانهم وقادة أفكار العالم . لم يذكر شعراء اللاتين من المرأة إلاّ جمال جسدها وليس في قصائدهم ما يدل على تلمس آثار النفس وراء ظواهر الجسد ، وجميعهم متفق على تسميتها : الشيطان الجميل أو ينبوع المسرات السامة . وشعراء اليونان : أسخيلوس وأوربيدس وغيرهمـا ، يسمونهـا — ببساطة كلية — : « بلية العالم » . أما الفلاسفة فأكتفي بأنْ أذكر

هنا كبيرهم أفلاطون ، أفلاطون الإلهي ، الذي يعتبره تاريخ الفكر أمة بأسرها ، أفلاطون ذا الأحلام الغامضة والمبادىء السامية الذي لم يترك موضوع إصلاح سياسي أو أدبي إلا عالجه رغبة في إسعاد العالم – أفلاطون لم يفكر قط في تحسين حالة المرأة ولم يهتم في درس أخلاقها واستكشاف درجتها العقلية والاستعدادية .

ماذا أقول ! إنّ أفلاطون هذا قضى حياته آسفاً لأنه ابن المرأة وكان يصرّح بازدرائه بأمه ، ويعتقد أنّ من كان جباناً من الرجال في هذا العالم فعند ولادته مرّة أخرى تتقمص روحه في جسد حيوان أو في جسد امرأة... وما علم أفلاطون أنّ امرأة ستعلّم الفلسفة الأفلاطونية الجديدة في « مدرسة الاسكندرية » وأنّ تلك المرأة لا يمنعها شبابها الغض وجمالها الرائع أنْ تكون أعلم علماء عصرها . تلك هي الفتاة هيباثيا ابنة ثيونوس الرياضي الشهير ، التي قُتلت رجماً في شوارع الاسكندرية في اوائل القرن الرابع ، فذهبت شهيدة علمها وإخلاصها ورغبتها في إشهار التعاليم الأفلاطونية الجديدة .

أول من رفع شان المرأة

صاحب الشريعة المسيحية وصاحب الشريعة الاسلامية .

أيها السادة والسيدات ،

أول من عطف على المرأة وأسمعها كلمات الاشفاق

والغفران هو يسوع الناصري . وهو أول من سوّى بينها وبين الرجل إذْ جعل لهما خطـة واحدة تفضي إلى ثواب واحد ، وإلاّ فللضالّين عقاب واحد . على أنّ النصرانية حرمتها من وظائـف الكهنوت ومـــا برحت طائفة من اللاهوتيين تراها قارورة الخطايا والآثام .

ثم جاء نـــبي الإسلام فرفع شأنها أي رفعة في بلاد العرب ، إذْ حرّم وأد الفتيات ، وسوّاها بالرجل في جميع الحقوق والواجبات . إلاّ في الشهادة والميراث — فإن امرأتين تساويان رجلاً — وفي ما عدا ذلك فهي والرجل سواء في جميع الحقوق المدنية ، ويقول العارفون إن لهـا الحقوق السياسية أيضاً . وللمسلمات أنْ يكن فقيهات وكانت أول فقيهة منهن عائشة ، زوجة صاحب الشريعة الإسلامية الذي قـال لقومه : « خذوا نصف دينكم عن هذه الحميراء » .

وعليّ أنّ أذكر هنا اسميْ بتراركا ودانتي ، وهما أول من تلمّس نفس المرأة من طغمة الشعراء والمفكرين . لقد جعلا لقصائدهما عرائس تتجلى فيهن ملكات الجمال الأدبي ، وهما اللذان ترنّما للمرة الأولى بالمرأة ذات النفس السامية والذكاء الوقّاد ، ومقومة عثرات الجنس القوي . من منا لا يعرف لورا وبياتريتشي ؟ إنّ هذين الاسمين لا يفترقان عن اسميْ بتراركا ودانتي ، وسيكونان أبداً المثل الأعلى

الذي تود كل امرأة أنْ تكون صورة لهُ . هذا المثل الجميل الذي مرّ في مخيـلة دانتي فصوّره في شعره الساحر قد اخترق ظلمات القرون الوسطى كبرق ساطع . ثم جاء كبير شعراء العالم الحديث شكسبير ، فجعل أبطال أكثر رواياته من النساء الجميلات ذوات النفوس الكبيرة ، تتلامس في قلوبهن بلطف يشبه تموّج النور في الهـواء ، أقوى وأعذب شعائر المحبـة بأسمى وأوجع عواطف التضحية ؛ وكذلك كانت النساء في روايات كورنايل ، وكلكم ذاكر بلا ريب بولين وكاميل وشيمان ... ألا تذكرون ؟

لم يكن جميع مفكري تلك القرون من رأى شكسبير وكورنايل ، بل كان معظمهم مبغضاً للمرأة ، ساخراً بها إنْ لم يكن طاعناً فيها . وقد لخص بوسويه أسقف موو أفكار معاصريه وأوردها في جملة واحدة إذْ قال بجديته الجبروتية المشهورة :

« خلقت المرأة من ضلع زائد في جنب الرجل ، فلهذا السبب هي عقيمة لا ذكاء في عقلها ولا إدراك في نفسها » .
رحمة الله عليك يا بوسويه ! إنك لم تكن نبيها ! أما كون المرأة مخلوقة من ضلع الرجل فهذا أمر لا رأي لي فيه ، غير أني أفضل أنْ تكون مخلوقة من عصير قلبه وعواطفه بدلاً من أن تكون ــ كوتليتا ــ مصورة . وأمـا كون الضلع زائدة فهذه مسألة فيها نظر ، وعلى كل حال فلست متوليةً إثبات هذه المسئلة التشريحية ... أو اللاتشريحية .

لذلك كانت المدنية عرجاء

أيها السادة ، لننس هذه الأقوال العتيقة ولننظر إلى أحوال الحاضر . إنّ النهضة النسائية تمتد يومياً في أقاصي المسكونة . إنها لنهضة عجيبة تبشر بخير عظيم وتنبيء بأنّ مدنية الأمس العرجاء الـتي لم تتكيء إلاّ على جنس من الجنسين ، هي غير مدنية الغد الممتعة بتحقيق الأماني . ليست مدنية الغد مدنية الرجل وحده ، بل هي مدنية الإنسانية ، لأنّ المرأة آخذة بالصعود إلى مركزها الحقيقي بقرب الرجل . إنّ موجة النور ، نور الارتقاء النسائي ، تزداد ارتفاعاً واتساعاً مـــع الأيام . في فرنسا والجلترا وأميركا وألمانيا وإيطاليا تجاهـد المرأة جهاد الأبطال في سبيل ترقية جنسها وترقية النوع البشري معها . ولقد نالت جميع حقوقها في أسوج ونروج وفنلندا وزيلندا الجديدة ، وفي بعض الولايات المتحدة ، فهي الآن والرجـــل سواء : أدبيّاً ومدنيّاً وسياسيّاً أيضاً . وفي كل من هـذه البلاد كان تأثيرها نافعاً جميلا ، وحيث تقلدت الوظائف العمومية قد قلـّت الجرائم ، وخفت وطأة السكر ، وظهر تحسن محسوس يكاد يكون ملموساً في مستوى أخلاق الأمة وفي حالتها الصحية جميعاً .

هذه هي المرأة الجديدة ومستودع آمال المستقبل .

ما تفعله اليوم المرأة

التي قالوا إنها لا تصلح إلاّ للخدمة

كم قالوا فيها أنها لا تصلح إلا للخدمة البيتية والزينة الجسدية وها هي مصلحة كبيرة ومفكرة عاملة . وكم قالوا أنها حيوان جميل وشيطان لطيف وها هي ملك كريم يحاول إفهام الرجل أن في الحياة عنصراً سامياً هو كل الحياة . وكم قالوا أنها كاذبة خبيثة وان الصدق والإخلاص بعيدان عنها بُعد الشمال عن الجنوب ، وها هي آخذة في تهذيب نفسها وملاشاة العاهات التي شوهتها في أزمنة العبودية . وكم قالوا إنها مترددة حائرة ذليلة لا تقوى على توليد فكرة ولا تحتمل المسؤولية ، وها هي عزيزة النفس شديدة الحرص على الاستقلال ، منحنية بحرقة على معاني الحياة العميقة . وكم قال فولتر إنّ فكرها سريع العطب وإنه يتحطم تحطيماً إذا حاول استفهام ناموس علمي . غريب أنْ يقول فولتر هذا القول ، هو الذي استمان بامرأة على فهم كتابات نيوتن ، وهي صديقته مدام دي شاتليه ومعربة كتاب نيوتن في ناموس الجاذبية . ثم اذكروا مدموازل لابلاس ، وماري كوالسكي ، ومدام كوري ، وعشرات من النساء المشتغلات في العلوم الطبيعية والعلوم المجردة ، والمئات المشتغلات بالفنون والصنائع والحِرف المختلفة . في فرنسا خمسة ملايين من النساء يشتغلن حاملات

في قلوبهن المسؤولية العائلية والهموم الكثيرة . يخترقن سبل الحياة المحفوفة بالكوارث والأوجاع ، داميات القلب ، ولكن شريفات النفس شريفات المقاصد . ومثل ذلك في إنجلترا وفي الولايات المتحدة حيث عدد المعلمات فقط يكاد يبلغ الأربع مئة ألف . ويقول الإحصائيون إنّ في مصر نحو مليون ونصف من السيدات المتعاطيات الأشغال العمومية .

قالوا ان العلم يذهب بملكاتها

وكم قالوا إنّ المعارف لم تخلق للمرأة وإنّ العلم يذهب بجمالها وتواضعها ولطفها ، وإنه يجعلها متكبرة جافة محتقرة العائلة هازئة بالرجل ، وها نحن نراها إذا تعلمت زادت جمالاً وحناناً أكيداً واحتراماً للعائلة وإجلالاً للرجل . إنها الآن تفهم معاني الحياة وتريد بكل قواها ترقية نفسها وإعلاء مداركها وتربية شخصيتها واستخدام ملكاتها في بث الخير والسعادة حولها وعلى كل ما يحيط بها . المرأة الراقية وحدها تعرف أنّ لها فخراً رئيسيّاً واحداً وهو ان تكون أمّاً بكل معنى الكلمة وبجميع المعاني التي تحملها هذه الكلمة . وهي وحدها تعرف أنها كانت إلى اليوم والدة الجسد فقط ، وتحاول أنْ تصبح أمّ الروح أيضاً ، أم العواطف وأم الأفكار وأم الميول ، والمهذبة الكبرى والصديقة العظمى .

قالوا لا عقل لها

وكم قالوا إنها لا عقل لها ، وإن حياتها سلسلة أهواء متتابعة ، وتقلبات صبيانية تافهة ، وها إننا نراها بعيدة النظر ثابتة المقاصد ، مغرقة منفعتها الشخصية في بحر المنفعة العامة . انظروا إلى روسيا حيث النساء تتألم تألم الرجال وأكثر ، روسيا حيث الثورة الفكرية تهيء حتماً الثورة السياسية ، كم من فتاة حسناء قد ضحت خطيبها ومستقبلها وهناءها حباً بمصلحة وطنها ، واشتركت في جمعيات تظن أنّ في تأييدها خيراً للبلاد .

انصار المرأة ومن هم

المتهكمون على المرأة كثيرون في هذا العصر الفوضوي ، ولكن أنصارها اكثر وهم من ذوي النفوس الكبيرة والرؤوس المفكرة . بل هم أسمى وأشرف رجال زماننا . إنهم يحترمون جهادها ، ويعترفون بحقوقها ، ويقرون بما تأتيه من الإصلاحات الباهرة ، ويعجبون بإقدامها وثباتها ويرون في نهضتها أيدياً جديدة عاملة لخير الانسانية وتخفيف الويلات عنها . أليس فيكتور هيجو هو القائل إن تحرير المرأة يحل أكثر المشاكل الاجتماعية وبعض المدنية ، وإنه ينتظر منها وحدها إلغاء الحرب في العالم ؟

شرارة الحياة في مصر

صوت المرأة من أعماق الدهور

وهو القائل أيضاً إن القرن العشرين هو عصر المرأة. ولقد صدق في نبوته! في كل مكان تفتح المرأة عينها لنور الحياة حتى في أطراف الشرق الأقصى، في الصين واليابان، وفي تركيا. وها إني أرى شرارة الحياة تشتعل في مصر أيضاً، حيث الرجال يساعدوننا بأقلامهم وبألسنتهم وبعثلهم، وجل ما يتمنون هو أنْ تستحق النساء عنايتهم واهتمامهم بأمرهن. أجل في مصر تتكسر القيود الدهرية التي طالما عذبت فكر المرأة ونحن اليوم عند عتبة مستقبل باهر. في مصر تشتعل شرار الحياة والا فماذا يعني وقوفي بينكم أيها السادة، وماذا يعني سكوتكم الجميل المملوء إصغاء تامّاً وتشجيعاً قوياً وتفكيراً عميقاً؟ أتكلم الآن بحرقةٍ كأني صوت المرأة الصامت منذ أجيال، وتستمعون إليّ بإشفاق كأنكم نفس الرجل المشتتة منذ ابتداء الدهور. النفس الكبيرة المبعثرة تستجمع قواها للإصغاء، والصوت الخافت الذي لم يتعود إلاّ همس الطاعة وتمتمة التمرد المبهم، يرتفع الآن آتياً من بعيد من عمق أعماق الدهور السوداء، من أقصى أقاصي الخليقة العجيبة، آتياً من القبور، من البحار، من عناصر الحياة جميعاً صارخاً: أيها الرجل! لقد أذللتني فكنت ذليلاً. حررني لتكن حرّاً، حررني لتحرر الإنسانية!

في طنطا

أيها السادة والسيدات ،

لم أكن أعرف من طنطا إلا اسمها ومحطتها يوم شرفتني الجمعية بدعوتها ، فشعرت بشيء يشبه العاطفة التي تعتري المرء عند إقباله على المجهول . ولكن ما لبثت أنْ عرفت عن هذه المدينة أشياء كبيرة في معناها : علمت أنّ أهل طنطا قوم تؤلّف بين قلوبهم أُخوة شرقية كريمة ، ويوحد كلمتهم حبُّ الخير والرغبة في نفع الغريب والقريب على السواء . عرفت أنّ النساء فيها مثال جميل للمرأه الشرقية الجديدة ، وأنهن يسابقن الرجال في إغاثة الملهوف والأخذ بيد البائس . عرفت أنّ هذا الاجتماع ملتقى عدد عديد من خيرة القوم يلتفُّ حول مدير ممتاز جامع لصفات الجندي الباسل والحاكم الحازم .

أما قاموس الأخبار الذي جمعت منه معلوماتي هذه فهو ذاك الذي يعرف كل الناس وكل الناس تعرفه ، هو الحركة الأدبية الدائمة : الاستاذ سليم سركيس .

ألقيت في الحفلة السنوية التي أقامتها في طنطا جمعية الاتحاد والاحسان السورية للسيدات مساء ١٤ حزيران (يونيو) سنة ١٩١٤ .

جئتكم بالتحية فاقبلوها وحيّوا معي الهمّة النسائية التي جمعتنا هنا لتطلعنا على ملخص أعمالها الجليلة . حسن أنْ تكون المرأة عالمة ، وأحسن منه أنْ تكون فاضلة . جميل أنْ تكون المرأة مفكرة ، وأجمل منه أنْ تكون شفيقة رحيمة . فحيوا المرأة التي لا تكتفي بالأمومة الجسدية ، بل تريد أنْ تكون فوق ذلك أمّاً للشريد الحزين الذي لا أمّ له . حيوا ينبوع الحنان والجود المتدفق على الأغراس التي طالما أوجعها ظمأ الفاقة وقد أوجدتها الطبيعة في تربة جافة ، وجردتها من عطاياها فجاءت المرأة تحنو عليها . حيّوا تلك الأيدي النحيفة التي تحسن إلى الروح والجسد معاً . أيدٍ قوية على ضعفها تعمل لخير الإنسانية بجد ونشاط كأنها أيدي رجال . حيوا معنى الإحسان السامي الذي يرفع النفس من مستوى الأنانية الضيّق ويجعلها مشرفة على آفاق الإنسانية الواسعة حيث تنمو وتنبسط بالإشفاق والحنان .

هللوا للمحسنين ، إنهم جبابرة العصور ورافعو الإنسانية من هوة الذل والشقاء . لهم نصبت الإنسانية أجمل التماثيل ، وعند اقدامهم سكبت حار الدموع ، ولقد كافأتهم بأن جعلت أسماءهم مقرونة أبداً بما لديها من المعاني الخالدات : الإحسان والشكر ، والفخر العظيم .

أيها السادة والسيدات ،

أمّا الآن وقد تعارفنا فلنا أنْ نتحادث قليلاً فتعالوا

معي إلى وطن الأوطان ومهد العالم ، إلى الفردوس الأرضي، ولا تخافوا مشقّة السّفر فهو سفر خيالي . أتذكرون الشجرة الشهيرة ؟ هناك تجتمع الآن أفكارنا حول تلك الشجرة المسماة شجرة معرفة الخير والشر .

موضوع مشترك بين الجميع لا يجهله كبير ولا صغير ، ولكني أعترف بكونه خطراً لانه يكشف عن حزازات قديمة في الصدور ، وينبه الرجال والنساء إلى الدفاع كلٌّ عن آباء جنسه ، فالرجل يقول : هي ! والمرأة تقول : هو !

لا تغضبي يا سيدتي حواء ، وهوّن عليك ، يا سيدي آدم ! إن تفاحتكما ضرورية للعالم وما كان أشقى ذراريكما لولاها . إنها رمز المعرفة ، وهل في وسعنا أنْ نتصور الإنسان جاهلاً والكون مجهولاً إلى الأبد ؟ لولا المعرفة ما كان علم ولا كان أمل ، ولا كانت فكرة الاستقلال ورغبة الارتقاء ؛ وإنْ لم تكن هذه فماذا يبقي الله من الحياة المعنوية ؟

في اعتقاد الأقدمين أنّ المعرفة تصير الإنسان كإله يعرف الخير والشر . وكانوا يخافون كل عالم ويرمونه بالسحر لانه سرق شيئاً من خصائص الآلهة : فيا له من اعتقاد عظيم تضمن أمل الارتقاء ! كانت المعارف صعبة المنال على طلابها لأنها لم تكن عمومية كما هي في عصرنا ، بل محصورة في أشخاص لهم أتباع وتلاميذ قد وقفوا حياتهم على حب العلم والحكمة . فإذا ما رغب امرؤ في

العلم هجر بلاده وثروته وذهب الى أحد الفلاسفة واندمج في عِداد تلاميذه جاعلاً غرضه الوحيد استماع أقوال معلمه والسير بموجبها . وبعد هـذه التضحيات أتظنون أنه كان يطمئن على أحواله ؟ اذكروا مـــا فعلته كسانثيبا زوجة سقراط ، تسمعوا الجواب على هذا السؤال !

مدرسة سقراط

كانت مدرسة سقراط من أشهر مدارس الماضي ؛ وكانت كسانثيبا زوجته ثرثارة ، ضيقة النفس ، سطحية المدارك ، ترى العـــلم جنوناً وتحسب زوجها معتُوهاً . ففي أحد الأيام إذْ كان سقراط يخطب في تلاميذه أخذت زوجته تضحك منه ، ولما لم يكترث لذلك انقلب ضحكها غضباً وطردت الأستاذ والتلاميذ جميعاً ساكبة على رؤوسهم الماء البارد . فتذمر التلاميذ وسألوا الأستاذ أنْ يكفيهم شرّ زوجته ، فأجـاب سقراط المسكين : « دعوها تفعل ، إنّ شراستها علمتني الصبر والحكمة . »

طوبى لك يا سقراط ! ولكن لو كان جميع النساء كمن ذكرنا لما كان جميع الرجال فلاسفة بل مجانين .

●

أجل كان الأقدمون يخافون العلم والعلماء واثقين بأنّ السعادة في الجهل المطبق والخمول النفسي . وعلى رغم ذلك

فقد كان في وسط تلك الجماهير النائمة الهازئة المعاكسة أفراد بلغوا أعلى درجات السموّ الفكري . ذلك لأنّ الإنسان لم يخلق إلا ليعلم . علم أولئك الأفراد فعملوا وأورثونا ثمين الآثار في جميع دوائر المعرفة الإنسانية ، ووضعوا الأسس الأولى لعلومنا الحديثة . نعم إنّ تلك الأسس هدمت مراراً لبطلانها واكتشاف ما هو خير منها ، ولكنه لا يسعنا إلاّ إجلال المنقوض منها والباقي لأنه نتيجة علم كثير وعمل متواصل .

أيها السادة والسيدات ،

لنا على الماضي امتيازات كثيرة . نعم إننا لا نستطيع أكل المعارف في نصف تفاحة كما فعل آباؤنا الأولون . ولكننا نمتاز على الأقدمين بأمور جوهرية كثيرة . إننا نعرف الآن قيمة العلم ، وإن المعرفة صلة الإنسان بالأشياء والسلك الكهربائي الجامع بين ذكاء الفرد وبين المعنى الحيوي المبعثر في أجزاء الوجود ؛ وإنّ على هذا السلك العجيب تفيض معاني الإنسانية العظمى ألا وهي الإعجاب والحبّ والعمل . نعلم الآن أنّ الجاهل سجين نفسه ، أسير أنانيته ، مستقل بإدراكه المحدود ، مكتف بدعواه ، لا يستقبل جديداً إلا بالطرد ، ولا يذكر حديثاً إلاّ بالتهكم وسوء الظن . ولئن تألمنا من احتكاكنا المحتم به فإنا نشفق عليه لضيق الدائرة الحيوية التي رضي بها ، كأنّ كل ما لدينا من الجمال والصلاح والثروة المعنوية لم يخلق له ، بل هو

كائن لسواه !

إنما امتياز عصرنا الأعظم هو فكرة التقدم ، والاندفاع في سبيل الارتقاء . وتوفّر المعارف وسهولة نيلها لمن طمح إليها ، بعد أنْ كانت محصورة في أفراد معدودين . لستُ من القائلين إن عصرنا هو العصر الذهبي الذي يحقق الآمال ، غير أنه عصر عظيم وابن عصور عظيمة بتفكيرها وجهادها؛ عصر مملوء خيراً لطالب الخير ، وفيه من أسباب الراحة وسهولة المعيشة ما يجعل اللذات المادية والمسرات المعنوية ، واقتباس العلم متوفراً لدى الفقير توفره لدى الغني . لقد اتسعت العلوم وتعددت فروعها ، فاتسعت بذلك سطوة الإنسان على الطبيعة ، وتعددت سبل العمل أمامه .

الفلسفة تنبش أعمال العقول ، والشّعر يلمس أسرار النفوس ، والموسيقى توقع همس الوجدان ، والتصوير ينسج العواطف نسجاً ويرسم أدق خطوطها ، فاليوم تحقيق أمنية الحكيم القائل : أيها الإنسان اعرف نفسك ! لقد ارتقت الأخلاق ، ولطفت الشعائر ، ودقت الملاحظة ، وأفسحت فكرة الحرية المجال ، فتيسر لكلٍّ أنْ يهذب شخصيتهُ كما يريد بعد أنْ كان مكرهاً على سبكها في قالب جيرانه ومعارفه . كان وأْد النساء حلالاً ، وقتل الأبناء جائزاً ، وفن الاستعطاء مقدّساً . أمّا الآن فسلطة الأب والزوج محدودة ، والنفوس عزيزة عاملة تنال ما تنال بالكدّ والسهر .

بالأمس كان الناس اثنين : سيّداً مستبدّاً ، وعبداً ذليلاً يباعُ ويشرى كالأنعام على غير علم منه . أمّا اليوم فمبدأ العدل يُضعف قيود العبودية ، وصوت الحرية ينادي بالإخاء والمساواة . لقد اتسعت دوائر التجارة وارتقت الصنائع ، وتبودلت منافع الاقتصاد ، فحلّ السلام والأمان – مبدئياً ! – إذْ لا غزو يفاخر به ولا اغتصاب يسامح عليه . والسياسة تحاول تسكين الخواطر والإقلال من الحروب ما استطاعت . فما أبعد أيام نيرون وماركس اوريليس والإسكندر والحروب الصليبية . حتى أيامك يا نابوليون ، حتى أيامك القريبة بعيدةٌ عن هذا العصر الذي يمنع الإنسان إيلام الحيوان ويعلمه الإشفاق عليه .

يدعي الماديون أنّ العلوم وحدها سبب التقدم وعنوان الحضارة ، فمتى كانت الكيمياء والهندسة أساس المدنية ، ولماذا لا نعتبر الصين أعظم بلاد العالم على الإطلاق لأنها مكتشفة البوصلة ومخترعة آلة الطباعة والبارود ؟

ليس في استطاعة العلم إلا تحسين أحوالنا المادية ، انه يعلم الإنسان استخدام الطبيعة ، وينمي ذكاءه نموّاً شديداً ، ولكن لا سطوة لهُ على الأخلاق . وأنتم تعلمون أنّ العلم نصف الارتقاء ، والأخلاق النصف الآخر ، وأنّ شرف

المرء قائم بحسن أخلاقه وسمو مداركه اكثر منه بتعدد علومه وكثرة أطماعه .

أيها السادة والسيدات ،

معنى المدنية عظيم مطلق . آت من أقاصي الأجيال متنقلا بين أشور وبابل وفينيقيا والصين والهند ومصر وأثينا وروما . إنه مجموعة العناصر العلمية والأخلاقية والحسية والعملية . كذا يجب أنْ يكون الإنسان فيجمع في شخصه معاني الإنسانية بأسرها . ليست الإنسانية عالمة أو طبيبة أو محامية أو تاجرة فقط . بل هي فاضلة معذبة ، مجاهدة فرحة ، حزينة فيلسوفة ، أديبة شاعرة ، باحثة فنية . هي قيثارة ذات ألوف الأوتار توقع عليها أصابع الحياة الألحان الرائعة من تشبيب وتأوه وتهليل ونوح وهتاف .

لذلك نرى دواماً في النوابغ ذوي الشخصيات الغنية مزيجاً من عناصر الإنسانية جميعاً . نرى الفيلسوف شاعراً أحياناً ، وقد نجد عند الفني والشاعر من الحكمة وإصابة الرأي ، ما لا نجده عند الحكماء أنفسهم ؛ ذلك لأن الشّعر والعِلم والفلسفة والأدب والعمل ليست أموراً منفردة في ذاتها ، بل هي تتلامس وتتجاذب لأنها أساليب مختلفة تعبر بها النفس عن أحوالها المتتابعة . عناصر عظيمة كلها كامن في عقولنا ، مترجرج بين ثنايا مشاعرنا ، متدفّق في أحلامنا وآمالنا ، مكوّن ثروتنا الحيوية التي تفيض ساكبة حولنا نوراً وسناءً .

قال لايبنتز : إنّ النفس مرآة يجب أنْ تنعكس على مياهها الصافية صوَر الإنسانية الراقية ومعانيها لتكون صورة مصغرة لها في الجمـــال والغاية . لقد عرفنا جمال الإنسانية فما هي غايتها ؟ هي أنْ ترمي إلى مثلٍ أعلى يلمع هنالك في أقاصي الأيام والأماني ، مثلٍ أعلى ترى كل عسير في سبيله هيناً ، وينهارُ في طريقها إليه كلّ حاجز . غاية الإنسانية المثل الأعلى الذي يعطي الحياة معنى لذيذاً ، ويكسبها رونقاً جديداً ، ويضرم في النفس ناراً تحرق الفاسد من ميولها ، ويؤهلها لأنْ تكون هيكل الأفكار السامية والمقاصد الشريفة .

إذن فالحياة الإنسانية خطوات ثـــلاث : خطوة من الجهل إلى المعرفة . وخطوة من المعرفـــة إلى الارتقاء . وخطوة إلى ذاك اللامع هنالك في أقاصي الأيام والآمال ، إلى المثل الأعلى الذي نجهله ويحيينا جميعاً .

والآن يأبى صوتي السكوت قبـــل أنْ يرتفع بتحية مشتركة لشطري الوطن الغالي : مصر وسوريا .

مصر . سوريا .

وطن واحد ما زالت العلاقات المتبادلة تزيدهُ كل يوم توحيداً . السوري في مصر بين أهله وأصحابه ، والمصري في سوريا بين ذويه وأحبابه . أنات مياه النيل صدى آهات النسيم في غابات سوريا ، والطبيعة التي تزمجر هناك بين

المرتفعات والمنحدرات ترتاح هنا منبسطة على صفحات المروج الفيحاء .

مصر وسوريا ، همستان مختلفتان من لغة جميلة .

مصر وسوريا ، كلاهما محسن وكلاهما محسوب ، لكن تبادل الإحسان والمحسوبية يؤيـــد صداقتهما ، ويزيد في اتفاقهما ، ويجعل قلبيهما خافقين على وفق نغمة واحدة .

مصر وسوريا ، فوق صروحهما يخفق علم واحد يفاخر الآفاق .

مصر وسوريا ، صفحتان مجيدتان من تاريخ مجيد . بل شطران جيلان عزيزان من وطن جميل عزيز .

هذه تحيتي يا مصر : أنثرها في فضائك بملء صوتي .

وقلبي يردد : لتحي مصر ولتحي سوريا !

العجائب الثلاث

كان بسكال يقول : إن كلمة « أنا » غير مستحسنة ؛ ولكن إذا سمحتم لي أنْ أبدأ بالكلام عن شخصي ، قلت : إن في نفسي ابتهاجاً .

قد تتساءلون لماذا ، فانظروا إلى اجتماعنا هذا تروا فيه الفرد الإنساني مكملاً وناموس الانصاف نافذاً .

لم يمرّ وقتٌ طويل على يوم كان الرجلُ الشرقي منكراً على المرأة ما كان يسميه « شر الدرس » ؛ يوم كانت المرأة عبدة تخفي جهلها وذلها تحت الأثواب الحريرية ، وتنسى قيودها الذهبية لاهيــــة بالأساور والجواهر . ثم حرّرها الرجل قليلاً قليلاً ، وصار يدعوها إلى الاجتماعات العالمية ، والسهرات الراقصة ، حاسبها زينة من الزينات المكملات لتلك الحفلات اللامعات . ولكن اليوم انظروا ! انظروا كيف علَت مكانة المرأة لديكم ! صرتم تدعونها إلى حفلاتكم الأدبية وتعطونها فيها مكاناً رحيباً . بل صرتم جاعلين للفتاة الشرقية صوتاً — صوتاً صغيراً ، ولكنهُ صوت على

ألقيت في الحفلة التي أقيمت في فندق كونتننتال مساء الجمعة ٢٨ نيسان (ابريل) سنة ١٩١٦ احتفــــاءً بمرور ٢٥ سنة على إنشاء مطبعة المعارف .

كل حال — بين أصوات الشعراء والخطباء ، منشطيها إلى ذلك بقوة ، ومرغميها على تناسي ما هي عليه من الضعف والقصور .

هذا للمرأة السافرة . أما أختنا المحجوبة فهي كذلك مستشعرة بنسمة الحياة الجديدة . من خلال نقابها الشعري اللطيف ، تفتح عينيها كبيرتين على آفاق النور ، وفي نفسها تتولّد ميول مندفعة نحو وجهة الارتقاء ، ورغباتٌ تائقات إلى مظاهر الكمال .

الرجل موجد الحركة النسائية عندنا ، والرجل منشطها ، والرجل مؤيدها . كثيرون من الأفراد يدعون إليها ، والرؤساء يعطفون عليها .

ولقد جاءتنا صحف الأسبوع بتعريب حديث للسلطان في تعليم الفتاة ، مع أحد مكاتبي صحف الفرنجة . إنّ هذا الحديث يزيد في قوة تأثيره العملُ المؤيّد ، لأنكم تعلمون أنّ أول فتاة تشتغل بالأدب في السلطنة المصرية هي البرنسس قدرية هانم ابنة حسين الأول ، فتاة لا يصرفها الجاه العالمي والثروة المادية عن ثروة الفكر وجاه التفكير .

اننا نحب الزينة واللهو والجواهر ، والسهرات الراقصات ، ولكننا نحبها الحب الذي تستحقه فقط ، وفي نفوسنا ميول أشرف منه وأعظم . عرفتم فينا ذلك ، وذكرتم أنّ الاستعباد قد ينقلب ثورة ، ففوضى ، وأنّ ما من غضب أشد خطراً من غضب الضعيف إذا استشعر

يوماً بقوته الكامنة . ذكرتم أنّ الطاعة الاجبارية ، طاعة الآلة البكماء ، لا قيمة لها وأنّ الطاعة الاختيارية تتم عن ثقة وصفاء نية وتُنتج خيراً . ذكرتم أنّ الخوف لا يقطن إلا في نفوس متصاغرة قد استنامت إلى الامتهان ، ولا يولّد إلا مودةً مكذوبةً ورياءً ، وأنّ الشعور بالحرية وحده يكوّن عاطفتي الاعتبار والاحترام ، وهما اسٌ متينٌ لكل ودادٍ شريفٍ مستديم .

ذكرتم أنّ لا قيود للنفس العالية إلا قيود الأخلاق الطيبة ، ولا جدران إلا جدران الحرية ، تلك الحدود التي لا تهدَم لأن المرء يضعها لنفسه اختياراً ، اختياراً مشتركاً بين اللائق والواجب ... ذكرتم كل ذلك ، وكان قد نسيه رجل العصور الماضية ، فقمتم تنادون بتعليم الفتاة وتحرير المرأة .

أيها السادة ! لقد كنتم محسنين ، وكنتم خصوصاً منصفين .

هذه حقوق للمرأة ، حقوق ابتدائية ، وإنْ كانت جوهرية ؛ ولكن ، يُرضي المرأة أنْ تتناول هذه الحقوق كنعمة من يد الرجل لأنّ التمتع بفضل القوي الكريم عزٌ ودلال .

أيها السادة والسيدات ،

لئن كان الانسان أعجوبة الخليقة ، كما يقولون ، وكان فكر الإنسان أعجب ما في الإنسان ، فإنّ هذا الفكر

قد أبدع عجائب ثلاثـــاً جعلت للحياة معنى ورونقـــاً جديدين ، وتلك العجائب الإنسانية هي : الكلمة والحرف والمطبعة .

من يستطيع أنْ يتصور الحياة خالية من الكلام ؟ نعم ، السكوت جميـــل ، وله أسرار هي حيناً مرعبة كظلمات اللجج وآناً لامعة كمقَل الكواكب في الدجى . ولكنه كلامٌ في ذاتهِ ، كلام تهمس به النفس بلا صوت ولا حركة ؛ وما السكوت القهريّ إلا بكمٌ أو نوع من البكم .

يجهل التاريخ أيّ الشعوب تكلم أولاً وكيف تكلم . على أنّ سادتنا الفلاسفة جعلوا هذه المسألة موضوع مناقشات شتى بدأت في القرن الخامس قبل المسيح مع «ديموقريطس» الذي كان يضحـــك دوامـــاً من الجنون الإنساني ، و « هيراقليتس » الذي كان يبكي حزناً على هذا الجنون ؛ ولم تنتهِ مـــع رينان الذي كان يكتفي بالابتسام المبهم قائلاً : « لكل مسألة وجْهان » . وفي خـلال القرون الطويلة التي مرّت بين ديموقريطس ورينان ، قال الفلاسفة أقوالاً جمة هي كأقوال هذه الطائفـــة – طائفة أنصاف الآلهة – عادةّ ، كثـــير منها جميل ومفهوم ، والكثير الآخر جميل و ... كأنه مفهوم ؛ خلاصتها تقسم إلى قسمين: ففريق يقول إنّ الكلمـــة نتيجة ذكاء الإنسان إذْ شعر باحتياج إلى التعبير عما يجول في نفسه ، فجرّب الحركات

أولاً ، وآهات الألم ، وعلامات الارتياح ، ولما أنّ شعر بنقص هذا التعبير عمد إلى إبداع الكلمة واستعمل الصوت في إبرازها . والفريق الآخر يقول بل الكلمة استعداد غريزي في الإنسان ، هي عمل الطبيعة بالذات ، وما تعبّر الكلمات إلاّ عن جوهر المعاني والأشياء . وقد زادت المدرسة اللاهوتية على هذا في القرن الثامن عشر ان الكلمة أعظم من أنْ تحسب استعداداً غريزياً لأنها وحي إلهي .

وسواء كانت الكلمة ابنة الطبيعة أم نتيجة الذكاء ، فهي على كلٍّ مرآة الفكر وملخصته ومهذبته . عندما تأخذ خطوط التصور بالارتسام على صفحة الذهن فتتتالى الصور ، وتتوارد المعاني متزاحمة بلا ترتيب ، تكون حالة الفكر آنئذٍ حالة غليان أو طوفان . ولكن إذا أردنا اطلاع الغير على ما هو جارٍ في خاطرنا انتخبنا من الصور ما كان أوضح بروزاً ومن المعاني ما كان أقرب مجانسة إلى شعورنا ، فجعلناها كلاماً ، جعلناها وجوداً يلمس بحاسة السمع ، تنطلق ذريراته إلى فكر محادثنا ، قاهرة تلك الهوّة المحفورة بين البشر ، هوة السكوت والتباعد التي تجعل الإنسان غريباً عن الإنسان ، فتؤلّف صلة قرابة بين الروحين ، صفة التفاهم ، ويصبح الغريبان متعارفين .

تكلم الإنسان فأراد تدوين تذكاراته ، فاستخدم ما عنده من قوى الملاحظة والتقليد في حالتها الأوّلية الخشنة ،

وأنشأ يرسم كل مـا يقع تحت حسه ، ومن هنا تولدت الهيروغليفيات القديمة الخمس .

مَن ، يا ترى ، كان مستخلصاً من تلك الحروف الصورية الأبجدية الاولى التي تناقلتها أكثر اللغات المعروفة لدينا ؟ هذا موضوع مناقشة ودية بين المصريين والسوريين . على أنّ الشائع أنّ الفينيقيين كانوا فاعلين . فحملها كبير تجارهم « قدموس » إلى بلاد الإغريق في القرن السادس عشر قبل المسيح ، ثم نسخها الرومان عـن الإغريق ، وتناولتها اللغات المتفرعـات من لغتهم كالإيطالية ، والأسبانية ، والبورتوغية ، والفرنساوية ، والإنجليزية ، والألمانية كذلك . لأنّ الألمان يكتبون لغتهم على نوعـين ، الكتابة الألمانية القوطية الأصـل ، والكتابة الـتي يسمونها لاتينية (Die lateinische Schrift)

ومن أبجدية « قدموس » جاءت أبجديات اللغات السامية من عبرية وكلدانية وسريانية ، وأبجدية تلك اللغة العزيزة التي لم تفقها الإغريقية واللاتينية جمالاً وانتشاراً . اللغة التي سُمِعت نبراتها تحت الأعلام الخافقات في أفريقيا حتى خط الاستواء ، وفي آسيا الجنوبية حتى جاوه ، وفي روسيا إلى ما وراء غاسا !

لغة عنترة والمتنبي ولغـة الموشحات الأندلسية ! اللغة التي همسنا بكلماتها الأولى في المهد أطفالاً ، ولسوف تكون

منها كلمـــة وداعنا الأخير . في صدرها تذكاراتنا وفي صدرها آمالنا ، اللغة العربية !

تكلم الإنسان وكتب ، فأراد تخليد معلوماته وكانت المطبعة آلة التخليد . وكما أنّ الشرق كان موجد الأبجدية كذلك كان الشرق سابقاً إلى استعمال الحروف المطبعية .

استعمل الصينيون الاكسلوغرافيا (أي الطباعة على حروف الخشب) قبيل القرن السادس ، وانتقل هذا الفن إلى أوروبا في القرن الثاني عشر ، وظلوا يستعملونه هناك على علاته تقريباً إلى القرن الخامس عشر ذلـك القرن الذي رأى الحروف المعدنية المتحركة وآلة الطباعة الأولى . ولكي ينصف التاريخ بين الرجلين اللذين أحسنا إلى العـالم فقد قسم الفخر بينهما ، وقـال إنّ « كوستر » الهولندي كان موجد الحروف المطبعية المتحركة وإن « جوتمبرج » كان مخترع آلة الطباعة ومنيل الحرف دقته الفنية الابتدائية .

هذه هي العجائب الثلاث الـــتي تعرفون أيها السادة والسيدات . ولا سبيل إلى تخليد العجيبتين الأوليين إلاّ بواسطة العجيبة الثالثة . كذلك تقهر الآلة المعنى ، وتنتقم المادة من الروح ! إنّ الفُنون جميعاً من رسمٍ ونقشٍ وحرفٍ وهندسة في حاجة إلى المطبعة ، لأنها تخلد بدائعها وتعمل على ترويجها . تحتاج إليها الموسيقى ، ولا أعـني الموسيقى العربية لأنها كلها ألحان (mélodies) متراوحة بين السيكاه والنهاوند والحجازكار ... الخ . ألحان كالنفس

الشرقية ، عميقة حزينة ، ولكنها بسيطة تتناولها الأذن الموسيقية بسهولة كلية ، وبعد تمرين قليل أو كثير ، توقعها بإتقان على العود أو على أي آلة شرقية أخرى . ولكني أعني الموسيقى الغربية ، وأهمّ قسم فيها ما يسمونه (Harmonie) . وثروة هذه الموسيقى وقيمتها في السوناتا ، والكانتاتا ، والأوبرا ، والسمفونيا وأمثالها مما لا يمكن نسخه بسرعة ووفرة ، وجعل اقتنائه ميسوراً للجميع إلاّ بواسطة المطبعة .

لكنّ المطبعة ضرورية خصوصاً لتخليد الكتاب . الكتاب ! سنيّ المواهب ، مفجّر ينابيع النُّهى ! الكتاب ! ذلك الصديق الأمين ، تلك الثروة التي لا تفنى ، تلك القسوة الصامتة ، المهيبة ، المهذبة ، التي لا تعرف جدالاً ، ما أعذب عبوس الكتاب في نفس محبّ الكتاب ! وما أخلصه جوهراً وأكرمهُ أستاذاً ، الكتاب الذي يرفعنا فوقَ صغائر الحياة ، ويعلّمنا كيف نُنمي فينا أشرف القوى الإنسانية ، الإخلاص والذكاء والإرادة ؛ ويقودنا قليلاً قليلاً إلى أعلى ذرى الإدراك والعرفان ، إلى أولمبس العظمة الشمّاء حيث أيوب ، وأسخيلوس ، وشيشرون ، ودانتي ، وسرفانتس ، والمعري ، وشكسبير ، وكنت ، وهيجو ، يسكبون في فكرنا أفكارهم ، وتصير نفسنا كبيرة بلمس أرواحهم فتتسع وتتسع ، ثم تتسع حتى تحضن الفضاء !

اليوم عيد مطبعة المعارف الفضيّ . ولسوف تمرّ بهـا أعياد شتى من الذهب ، والزبرجد ، والياقوت ، والماس ، إنْ شاء الله ! تـُظهِـرُ في خلالها لمحبّي الحياة العقلية من تلك الكتب النفيسة التي لديها سرّ انتخابها وسرّ إتقانها . تلك الكتب التي على الحرب ، وعلى الوجع وعلى الفاقة ، وعلى الظلم المحتم في الحياة ، وعلى الدماء والعبرات ، وعلى الشقاء ، وعلى اليأس ، وعلى كل بقعة سوداء تعكر سماء الإنسانية ، تضـــع شعاع نور باهرٍ منبعث من كوكب الفكر الخالد !

سوريا الجائعة

أيها السادة والسيدات ،

إذا التقى غريبان في أرض بعيدة – ولو كانت تلك الأرض وطناً ثانياً كمصر العزيزة – فما هو يا ترى الموضوع الذي تتناوله أحاديثهما بداهةً ؟ إنّ ذلك الموضوع ينحصر في لفظة واحدة ، وهي التي تحوم الآن على لسان كلٍّ منا : الوطن ، الوطن القديم .

أذاكرون أنتم حركات السفن في مرافيء سوريا ، وجمال الثغور المنثورة على شفة البحر كالشامات البيضاء ؟ أذاكرون أنتم أرواح الفلّ والنعناع والورد والصعتر والليمون والياسمين ، آتية تودع النازحين ، حاملةً طي أنفاسها صدى تغريد الشحارير والبلابل ؟ أذاكرون أنتم لبنان القائم على الشط كهيكل منصوب بين الأرض والسماء وكأن أنواره في الظلام شموع أوقدتها يدُ الآمال على مذبح الحياة؟

هُيئت هذه الخطبة إجابة لطلب ميشيل لطف الله رئيس نادي الاتحاد السوري لتلقى في حفلة كان النادي ينوي إقامتها في شهر ايار او حزيران سنة ١٩١٦ لإغاثة سوريا الجائعة . ثم طرأ ما حال دون الإلقاء .

كلنا نذكر هاتيك الربوع بخشوع وتحنان لأنّ لكلٍّ منا مكاناً هناك محبوباً بما ترك فيه من أجزاء نفسه ، وما أبقاه له من تذكار . تذكار أيام المدرسة والتلمذة ، أو تذكار شهور اللهو والاصطياف ؛ ساعات تأمل لدى جلال البحر وعظمة الجبال ؛ ساعات الخطاف أمام تقلب الألوان وتعاقب النّور والظلام تحت سرادق الأفق ؛ أوقات أنسٍ وطرب قرب الينابيع والأنهار ، ونغمات عود ، وشدْو أصوات في قلب الغابات تحت الغصون النديّة . هذا بعض ذلك التذكار الذي يمتزج بذرّات القلب ، وينيلنا رغداً وتعزية إلى آخر العمر .

لكلّ سوريّ منّا معارف هناك ، وأصدقاء ، وذوو ُقربى . أما الذي ليس لهُ من عزيز بين الأحياء ، والذي ليس سوريّاً بمولده ونسبه فهو سوريٌّ برابطة أمتن من هذه جميعاً لأن روابط الموت أقوى من روابط الحياة : هو سوري بقبور موتاه ؟

الآباء والجدود ، تلك هي روابطنا التي لا تنفك ! الآباءُ والجدود ، تلك الجفون التي أُسبلتْ على نورها وما فتئَتْ ترى الكائنات بعيوننا ! تلك الأشباح التي كانت أجساماً ، ثم قضت ومضت لتلبث حيّةً بنا وفينا ! أولئك الراحلون الذين ضمّت أرضنا رفاتهم إلى صدرها العطوف ، وأنبتت عند جوانب مضاجعهم أعشاباً لدنة ترتعش في ظلّ السنديانة الكبيرة ، والصفصاف النائح في مدافن

* * *

ولكن كيف أذكر أعشاباً نبتت على قبور الموتى ، وأنسى أن مساكن الأحياء قد خلت من أبسط الأقوات وأرخصها ثمناً ؟ كيف أنسى أنّ أرض سوريا قد أمسكت خيراتها ، ففقدت الحدائق أشجارها ، وتجردت الغصون الباقيات في الغابة من أوراقها ، وشغلت مكان جماعات الطير الصادح في جوّها كتائب الجراد المبيد ؟ كيف أنسى أنّ البحر قد سُدّ في وجه سوريا ، وأنّ ضرورة الحال قطعت بينها وبين أبنائها الغائبين ؟ بل كيف أنسى أنّ الثريّ هناك أمسى فقيراً ، والفقير معدماً ، والمعدَم جائعاً ، والجائع معانياً نزعاً طويلاً أليماً يتركه جثة في قبضة الموت الأغبر ؟

كلاّ ! لا أنسى ان الشيخ الذي أنالتهُ المصائب والتجاريب حقوقاً على احترام الدهر لهُ ، قد مشى الدهرُ على شيخوخته وحقوقه ، وأماتهُ ميتة هي من أوجع الميتات وأقلها كرامة : الميتة الغبراء .

كلاّ ! لا أنسى أنّ فضائل الصبر والتضحية التي امتازت بها بعض الأمهات لا تقوم مقام الغذاء . فتقضي الأم يائسة ويستسلم الطفل للبكاء وهو لا يدري أبكاؤه تخوّفٌ لمنيةٍ

أقبلت عليه ، أم رثاءٌ للقلب الوحيد الذي أحبه وقــد حرمتهُ منه ميتة هي من أوجع الميتات ومن أقلها كرامة: الميتة الغبراء .

كلاّ ! لا يمكنني أنْ أنسى أنّ شبابنا المتلثين حياة وذكاءً ونشاطاً ، شبابنا أمــل الغدِ وضمانة المستقبل ، يموتون هم أيضاً بلا مقاتلةٍ ولا مناضلة ولا جهاد ، يموتون لأن الحياة تتملص منهم قليلا قليلا حــتى تتركهم جثثاً هامدات بميتة هي من أوجع الميتات وأقلها كرامة : الميتة الغبراء .

آه ! ترى ماذا كنــتم تقولون ، أيها الموتى ، لو كنتم قائلين ! لعلكم تقولون « تجود الطبيعة على الطير بما يغذيه ، وعلى الشجرة بمــا يقوي عناصرها ، وعلى الأفعى بتراب تسفّهُ ، ولكنها ضنّت علينا فمتنا جائعين . ولو اكتفت بنا ضحية لسعدنا ، ولكننا سابقون للاحقين . إخواننا يتوافدون علينا في عالم الظلام جماعة بعد أخرى ولا نحن ندري ولا هم يدرون ما هذا الذي نذهب فداءً له . أليس من مغيث ، أليس من معين ؟ »

بسلام ، أيها الموتى ، ناموا بسلام وكونوا للأحــياءِ فدًى . لقد سمع المحسنون أنينكم والمحسنون كثير . إنّ السوريين النازحين يحبون أمهم الصغيرة سوريا القائمة وراء الأزرق البعيد ويعرفون واجبهم في مثل هــذا الموقف .

وهم لما يوحيه إليهم الحبُّ ويفرضه عليهم الواجب لفاعلون.

* * *

أيها السادة والسيدات ،

لئن كانت الأنانية الخيط الذي ننسج بهِ أعمالنا اليومية ، فهناك أحوال خصوصية تمر بنا وترغمنا على التحليق فوق الحياة العادية ، فوق دائرة الأنانية الضيقة وما يشغلها من اهتمام ركيك واعتناءٍ سخيف . إذْ ذاك نرتفع فوق نفوسنا ونُشرف على آفاق الإنسانية الواسعة .

بين الناس أفراداً كانوا أم جماعات ، فروق جمّة تلازم تغاير الطبائع وتفاوت الملكات والمواهب . ليست طبقة المحتاجين بطغمة ملائكة ؛ وكثيرون من طالبي الإحسان لا يستحقون المساعدة لأنهم إنما يعيشون للكسل والخمول والتبذير اتكالاً على كرم الآخرين الذي لا يعتبرونه كرماً بل ضعفاً وبلاهة ، لهم أنْ يستغلّوها تارة بالبكاء ، وطوراً بالتهديد . فالإعراض عن هؤلاء وتركهم للعُوز يربيهم فرض واجب يوازيه أهمية واجبُ البذل عند الحاجة الصميمة التي لا تكلف فيها ولا احتيال ، ولا هي تُستعمل واسطة لتحقيق الأطماع وإرضاء الشهوات بلا عناء .

أمة بأكملها تموت جوعاً هي الأمة التي خرجنا منها وما زلنا ندعى باسمها . أمةٌ بأكملها تحتاج إلى القوت وقد

تعذّر عليها العمل لأنها حُرِمت وسائله ، فهل ننتظر منعاها جامدين أم نسعى جهدنا إلى الاغاثة التي تفرضها علينا ، لا أريد أن أقول الوطنية فحسبُ ، بل تفرضها علينا أيضاً تلك الوطنية الكبرى التي ترفع المرء فوق نفسه ، والأقوام فوق أنانيتها ، لتربطها برابطة الإنسانية النبيلة السامية .

للأديان أئمتها وكهنتها ، وللسياسة زعماؤها ومؤيدوها ، وللحروب قوّادها وجيوشها ، وللعلوم مكتشفوها ومورِجدوها ، ولكلّ مذهب فلسفيّ أو اجتماعيّ أو فنيّ أو فكريّ محبّذوه ومروّجوه ، ولكلّ جنسيةٍ عصبيتها وكبرياؤها ؛ ولكن هناك جنسية واحدةٌ ، بل مذهباً واحداً ، بل ديناً واحداً ، بل جامعة واحدة لا أئمة لها ولا معابد ، لأن كل فردٍ نبيل كاهنها ، وكل قلب معبدها ، وكل عاطفة بخورها ، وكل فكرٍ قائدها .

هي الجنسية التي تشمل الجميع بالمواساة والرعاية عندما تتحارب الجنسيات بالمطامع والأهوال .

هو المذهب الذي يضمد الجراح هامساً بكلمات العطف والسلوى حين تتنافس المذاهب في التخريب والطغيان .

هو الدين القائل بالصلح والسلام يوم تتقاتل الأديان للتفوّق والغلبة .

هي الجامعة التي يهتف بها حتى الظالمون والجناة

ليستميلوا إليهم الانتباه والعطف العام : جامعة الإنسانية العظيمة .

فإليكن ، أيتها السيدات ، أسوق الكلام أولا . فكم استخدمتن ابتسامتكن في أسواق الخـــير وأعمال الرحمة تشترين بها قوتاً للجائع وكساءً للبائس . وها قد جاء يوم من أخطر الأيام ، فيه تحتمت عليكن المعونة والمباراة في الاستجداء .

إلى السوريين في جميع أقطار الشرق والغرب ، وإلى كل محسنٍ من أيّ جنسٍ ودينٍ ومذهـــب ، تسير أنـّة سوريا .

إليكم أيها السادة ، وكلكم قادرون . كونوا الشجرة الكبيرة ذات الغصون الخضراء الـتي تُظلّ الشقيّ ساعة استعارِ الهاجرة ! كونوا الينبوع الصافي ذا الأنشودة الفضية الذي يروي المسافر في الواحة الخصبة بعد قحط الصحارى وجدب القفار !

كونوا سوريين بقبور الآباء الأقدمين ، وكونوا إنسانيين برابطة الإنسانية الواحدة ! بل كونوا الآن تلك العاطفة التي تدبّ في الجنان إشفاقاً ، وتتكوّن في الضمير واجباً ، وتبرز في العمل تدبيراً ، وتنقلب بالتنفيذ فائدة فتكون نتيجتها حياةً !

كونوا أولئك جميعاً ولا تفتحوا بالإبطاء قبوراً جديدة !

حفلة «ثمرة الاتحاد»

أيها السادة والسيدات ،

اجتماعنا في هذا المساء ، وفي هذا المكان ، بسمة من البسمات القليلات بين عبرات الإنسانية الكثيرات . جئنا نقول لليتيمة الفقيرة « لستِ وحيدة في العالم بل كلنا أهلكِ وذووكِ » .

كم من صورة وجيعة ترسم هذه الكلمة البسيطة « اليتيمة الفقيرة » ! من كان يتيم الوالدين كان يتيم النفس . كلُّ ما أوجدتهُ الطبيعة في قلب الآباء من عنايةٍ وحنان لا يعرفهُ اليتيم . فما أشقاه ، لا سيما فقيراً يذوق مع مرارة الوحدة في الحياة مرارة ذلٍّ يرافق الفاقة ، ومرارة الجهاد وثقل المسؤولية المضنية .

وما أحرج موقف الفتاة اليتيمة ! إنّ الرجل مجاهد مناضل طبيعة ووراثة . لا يرتد أمام المسؤولية ويبتهج بوحدة الرأي والاستقلال في العمل .

ألقيت هذه الكلمة في الحفلة التي أقامتها جمعية « ثمرة الاتحاد » القبطية ، لمدرسة اليتيمات في دار الجمعية بمقصورة الشوام بشبرا ، ليلة ١٦ تموز (يوليو) سنة ١٩١٦ .

أما المرأة — المرأة الشرقية خصوصاً — فميالة بطبيعتها ووراثتها إلى الانزواء والخضوع والاستكانة فهي تتوجع بعامل الأحوال المتلاعبة بها إذا ما طلبت مكانة أوفق لذكائها ونزعاتها . فماذا تقول فيها إذا هي أُرغمت على المجاهدة طلباً للرزق ، وسدّاً للعوز ، وبحثاً عن مكان لها في نُور الشمس وسط تزاحم هذا المجتمع المتدافع المخيف ؟

كم من عبرة تذبل عينيها ، وكم من ألم يفطّر قلبها ! وكم تذوق في وحدتها من طعوم اليأس والهوان ، وكم تنادي الموت وتستعطفه أنْ يهرب بها إلى حيث لا تعاني ظلم الحياة وظلم الأحياء !

والمجتمع لا يعرف من ذلك شيئاً ، ولو عرف تفاصيل تلك الحياة الصغيرة الشقية لما همّهُ أمرها لانه مسوق بهمومه ومطامعه وله من دموعه وحسراتهِ ما يجعله في شاغل عن دموع الآخرين .

لذلك كان المعتنون بهؤلاء الصغيرات ، العاطفون على اليتيمات عطف الآباء خليقين بكل تنشيط وكل ثناء . غير أنّ القلوب الكريمة التي تدفعها الرحمة وُحبّ الخير إلى القيام بهذه الأعمال المشكورة لا تنتظر من الخارج تنشيطاً لأنه يأتيها من أعماقها الطيبة . ولا هي تحتاج إلى الثناء لأنه ينبعث من تلك العاطفة الكبيرة التي لا إسم لها ، والتي تغمر الفؤاد بعد إتمام الواجب نحو المحتاجين من إخوانه .

أما الإحسان إلى الجميع على السواء بصرف النظر عن فروق الأجناس والأديان فهو أعلى درجات الإحسان. لأنّ الإنسان إنْ كان غريباً عن أخيه بحواجز لم يكوّنها وقد لا يريدها – فهو قريب إليه بإرث البشرية الأكبر: الألم والبكاء.

قالوا إنّ الأشياء العظيمة تنحدر دواماً من الأعالي، وما ذلك إلا تملق للقائمين على رأس الهيئة الاجتماعية. ولكن أشياء كثيرة تتعالى آتية من العمق. وهل من محيط أدنى مستوًى وأعمق قراراً من البحر؟ والبحر مستودع اللآليء والعجائب، والبحر مرضع الينابيع والأنهار، والبحر ينبوع أفيح تمتصّ منه الشمس ما تعقدهُ في الجوّ غيوماً لتهطلهُ على الأرض بركة وخيراً.

أنت يا ابنة الفاقة واليتم والألم، أنتِ البحر الإنساني لأنك الأكثرية ولأنك من المجتمع: المرتبة الدنيا. ومن أعماقك المجهولة يستخرج عطف المحسنين ذكاءً وقاداً، ونبوغاً عجيباً.

كفكفي عبراتك، أيتها اليتيمة! لئن ضاعت دموع كثيرة تسكبها الإنسانية في الظلام تحت لواحظ الكواكب الصامتة، ويبدّد الهواءُ جزافاً زفرات تنبعث من أقاصي النفس كأجزاء منها، فأنتِ سعدتِ بالاهتداء إلى القلوب الشفيقة، ووجدت عند الغرباء عطفاً قد يفوق عطف

الأقربين .

في ظل الجود والحنان انمي شاكرة ، يا ابنة الألم ! ثم اخرجي إلى عالم العمل والإفادة ، قوية جادّة . والعين الأبدية التي ترى كل شيء من وراء النجوم ، تحصي الحسنات ولا تنسى لكريم ما يحمله إلى القلوب المصدوعة من المعونة والسلوى .

البعث العتيد

يقول الفرنسيون إنّ أسبانيا لم تبعث إليهم إلا بملكات صالحات . أما نحن أيها السادة ، فقد عرفنا أسبانيا وقد أعجبنا بها . عرفناها بمن أعطتهم من بنيها إلى العالم الروماني من فلاسفة وشعراء وفقهاء وخطباء وامبراطرة . عرفناها بآدابها وفنونها وبلغتها الموسيقية العذبة . وعرفناها بمساعدتها لذاك المقدام الباسل الذي ركب من البحر جواداً حروناً وما عاد من الشواطيء المجهولة الا" وقد اكتشف للعالم القديم عالماً جديداً ، كريستوف كولومب .

عرفناها بتاريخها الطويل الكثير الحماسة ، الكثير الجهاد . عرفناها بما طوي عليه الروح الأسباني من الفروسية وطيب العنصر ، من علوّ الهمة ودماثة الخلق ، من توقد الفكر ودقة الفهم . وأعجبنا بما فطر عليه الأسباني من

كتبت هذه الخطبة بالعربية ثم لخصت بالفرنساوية وتليت بهذه اللغة في الحفلة التكريمية التي أقامها طلبة الفلسفة للكونت دي جلارزا المستشرق الأسباني يومئذ ، أستاذ الفلسفة في الجامعة المصرية ، عند انتهائه من تدريس تاريخ المذاهب الفلسفية عند اليونان والرومان . وقد أقيمت الحفلة في حديقة فندق شبرد . مساء ١٣ نيسان (ابريل) سنة ١٩١٧ .

التضحية في سبيل الوطـــن ، والحب الشديـد للحرية والاستقلال .

إلا أن لأسبانيا حسنة خصيصة علينا نحن طلبة الجامعة المصرية لأنها أعطتنا أستاذاً من أمثل بنيها ، وهي حسنة لا تقابـل إلا بجميل الثناء . فلنحيّ إذاً أسبانيا الكريمة الجميلة في شخص أستاذنا الأسباني ، ولنحيها في شخـص ممثليها الفاضلين دون كريستوبال [١] فالين ومسيو دي كاريرس !

* * *

أيها السادة ،

كان الظلام مخيماً على الأفكار . كان اسم فرجيليوس ضائعاً بين أسماء المشعوذين ، واسم فيدياس وبراكسيتيلس نسياً منسياً يوم صاح دانتي صيحةً ما لبث أنْ اتبعها بتراركا وبوكاتشيو بصيحات متعددات . روح النبوغ التي ظلت تتنقل صامتـة في نفوس الأفراد خــلال القرون الوسطى ، هبطت على شعراء إيطاليا مطلقة ألسنتهم ، فكان شعرهم عويلاً وتهليلاً ، يأساً ورجاءً ، خاتمة لعهد مضى

(١) دون كريستوبال فالين ومسيو دي كاريرس هـما سفير دولة أسبانيا ومعتمدها السياسي ، وقنصلها في العاصمة يومئذ . وكانا حاضرين في الاحتفال .

وفاتحة لعهد جديد .

يومئذٍ ، بين جمهوريات مستعبدات وولايات ثائرات ، كانت روما مضعضعة الأركان لا تضع تاجها على رأس ملك من ملوك الغرب حتى تهدد أسوارها جيوش ملك آخر . لكن صوت الارتقـــاء لا يخفت مهما علت حوله أصوات معاكسات . إيطاليا الـتي كانت تمزقها الأحقاد والأطماع تمزيقاً ، ودماءُ صفوة بنيها تُراق على شفار السيوف ، بينما حصونها تندك تحت لعلعة النيران دكـّاً ، إيطاليا الخالدة ، لم يبق لها لدى أنين قيثارة الشاعر إلاّ نفسٌ طروبة طامحة إلى بلوغ الأقدار الخطيرة .

موجة حياة جديدة تولـّدت في أرض المدنية اللاتينية ، وما كان حتى استفاضت على أوروبا بأسرها . لم تلمس في باديء الأمر إلا الطبقة العليا ، ولكن ما لبث أن أدخلها اختراع الطباعة إلى نفس العامـة . فتغلغلت مع الكتاب بين طبقات الشعوب جميعاً .

ثورة مباركة استعر لظاها في جميع فروع الفكر الإنساني . فصارت الفنون تحتذي بدائع المدنيتين الإغريقية واللاتينية مضيفة إلى جمال الأصل جمالاً كـَمَنَ في الأرواح، تحت طيات الألم ، مـــدة ألف وخمسائة من الأعوام . أخذت شجرة الآداب تزهر أطيب الأزهار . انقلب علم التنجيم إلى علم الفلك ، فانهدّت قبة السماء الوهمية وسُمع حفيف الأفلاك في أبراج اللانهاية . قامت العلوم على تعددها

تتسع باكتشافاتها وتتقوى بتجاربها ، طاردة ما عثرت عليه من خرافات وأوهام وشعوذة . رُفع أفلاطون ، المجهول قبل ذاك إلى عرشهِ السامي باسطاً على النفوس جمـال فلسفته الشعرية . وذلك العهد المجيد ، عهد إحياء الفنون والعلوم والآداب ، دعي عهد الانبعاث .

أيها السادة ،

تاريخ القرون الوسطى الذي انتهى في أوروبا بابتداءِ القرن الخامس عشر ، يكاد يمتد عندنا إلى أواخر القرن التاسع عشر . إلاّ افراداً فكروا في وحدتهم منعزلين عن محيط بينهم وبينه أبعد الغربات وامرّها ، غربة الروح . فتركوا لنا في كتاباتهم آثار نبوغهم . آثاراً اذا مـا استجوبناها الآن عجبنا من تغلبهم على كل حائل في سبيل العلم واخذَنا الإشفاق عليهم لأنهم كانوا يستحقون السعادة ولم يسعدوا .

واذا استثنينا فئة سَمَت منها المطالب فشغفت بفكرة الارتقاء ، أليست هذه السنوات الأولى من القرن العشرين أشبه شيء بعهد القرون الوسطى نظراً إلى حالة العامة ؟.. الشعب هنا مستودع ظلام وجهل ترتع في ربوعه الخرافات والشقاء . ولا أظن أنّ مـا ينقصنا هو اختراع الطباعة لنُدخل أشعة الفكر مع الكتاب إلى تلك النفوس النائمة . ولكن ننتظر التعلـيم الإجباري ، ننتظر عمل المدارس الابتدائية منها والعليا ، ننتظر الوقت أبا العجائب ، ننتظر

زيادة غيرة في الرؤوس المفكرة ، وزيادة تحفز في الهمم النهّاضة ، لنسير في طريق فَوْز ميمون إلى عهد جديد يخرجنا من ليل القرون الوسطى إلى نهار البعث العتيد .

اشتهر أحد الرومان بكلمة رددها سنوات طويلة وهي: « فلنهدم قرطاجنة ! » . وفي نفس الفئة الراقيـة عندنا أمنية ثابتة وهي : « فلنهدم الجهل ! » وإنما تهدم المدائن بقنابل المدافع ؛ وأما الجهل فظـــلام ، والظلام لا يهدم إلاّ بتغلب النور .

النّـور ! النور ! نريد النور دواماً وفي كل مكان ! نريد ارتفاع النفوس إلى أوجٍ تفهم عندهُ جمال الرجاء ، جمال الإشفاق ، جمال الواجب وجمال الخير ! نريد أنْ يفهم الرجل كرامة المرأة ، وأنْ تفهم المرأة كرامة الإنسانية ! نريد أنْ نعرف ذلّ العبودية كي ندرك عزّ الحرية ! نريد أنْ نكسر قيود الإرغام كي نقيد ذواتنا اختياراً بواجبات سامية . نحن نعلم أنّ قيود الحرية أوفر من قيود الظلم عدداً ، وأدقّ نوعاً ، وأوجع وطأة ، ولكنّ في قيود الظلم إذلالاً يسحق الشخصية هابطاً بالإنسان إلى تحت درجة الإنسان ، وفي قيود الحرية عزة تعلو بالمرء إلى قمة العظمة فتصيره إنساناً كاملاً ، يقوى على النظر مليّاً في وجـه الإنسانية المجاهدة قائلاً : « أنا ابنك وقد صيرني جهادي أهلاً لهذه النبوة المقدسة ! »

* * *

أيها الأستاذ الكريم ،

نحن جزء من الفئة التي ذكرنا . ولقد صدق فينا مثل أهل « اليوجا » الهندية القائل : « اذا استعد التلميذ جاء الأستاذ » . ساعة تقف نفوسنا حائرة عند أبواب المستقبل تتجاذبها عوامل الشك والرجـــاء فتدفعها حيناً وتحجمها حيناً — في هذه الساعة الخطيرة من حياتنا الأدبية نراك عاملاً يداً بيد مع أساتذة جامعتنا الأفاضل ، ومع نفوس غيورة أخرى تعمل لنهضتنا بالسكوت وبالقلم وباللسان ما استطاعت إلى ذلك سبيلا .

أنت الغريب عنا جغرافياً نراك من اكثر الناس اهتماماً باتجاهنا المعنوي . وهل يمكن أنْ يكون المحسن غريباً ؟

نراك ساعياً إلى إنهاض المدارك منا بحلم العالم الذي قد سبق وطوى طريقاً يقودنا الآن فيها ، وجال في أحنائها ومطاويها فوقف على ما يملأها من مجيد الصعاب . وهناك في قاعـــة الدرس الصغيرة حيث يدخل شفق المساء على عجل ، وتُسرج المصابيح سريعاً ، كم استحضرتْ اشارتك الواسعة نوابغ الأجيال بتوقد عطاردي ، وبرصانة مفكر قد اعتاد تسنم الذرى العقلية . فسردتَ مذاهب المتقدمين باسطاً أقوالهم ، مفنداً آراءهم ، شارحاً مـــا لامس منها الإعجاز ، ملخصاً نقد الناقدين فآتياً بالنقد عليها جميعاً . ذلك بسلاسة وإيجاز تكسوهما بلاغة عبقرية قد تكون انتهت إلى الأسبان كإرثٍ شيشروني .

وبينا بيانك يزيح حجباً ضُربن بين المعاني والافهام إذا بالنفوس منا تثب مطلاّتٍ على آفاق جديدة . فيلحقنا عطش العلم ، وتأخذنا رغبة السؤال . وروحك الكبيرة العالية منهل نُور وحكمة ، كلما استقينا منها معرفة وضياءً زادت تدفقاً وتدفقت سخية ، وديمة ، صافية ، يتألق في تموجها حب العلم وحب الكمال .

اليوم عيد شكرنا . ولئن ذكرنا باغتباط وامتنان ساعات تفيض بها علينا سنيّ هباتك فاننا نذكر بتهيُّب ساعات اخرى كثيرات لا نسمعك فيها ، ولكن نعرفك في غيابك عاملاً لخيرنا . تلك ساعات العزلة إذْ يختلي الأستاذ بنفسه مهملاً ضوضاء العالم . ساعات سكوت وتأمُّل تجعل الفيلسوف عميقاً كالبحر لا تقلقه العواصف ولا تكدره الدلاء .

نراك منحنياً على كتب كثيرة تتصاعدُ من صفحاتها صور الحياة وخيالات اللانهاية . تقابل بين لغات قديمة ولغات حديثة ، وتقارن بين أسلوب وأسلوب ، وتعبير وتعبير ، لتنقل إلى لغة العرب حكمة شقيقتيها في المجد والقدم ، ومناظرتيها في الفصاحة والغنى : الإغريقية واللاتينية . لكنهما على شهرتها لم تنتشرا انتشارها . ارتفعتا حيناً الى أوج الحياة والعظمة ولم يكن ان هبطت كل منهما مع مدنيتها . أما أختهما الثالثة ، لغة مكة والحجاز والعراق ، فلها الغلبة ولها البقاء ولا يزيدها كرُّ الدهور

إلاّ فتوةً وجمالاً لان لغة القرآن لغة خالدة .

إننا ننحني باحترام لدى ذكر تلك الساعات النفيسة ، ونستزيدك منها لأننا في حاجة إلى أثرها في نفسك وفي حاجة إلى نتائجها الجليلة . ولئن استشعرنا بما تجده من العناء الكثير قرب الارتياح الجزيل في عملك المجيد ، فإننا نعلم كذلك أنّ مَن كان مثلك ما ألهمته الحوائل إلاّ همة ونشاطاً ، ومـــا زادته المسؤولية إلاّ توهجاً وإخلاصاً .
واللغة التي أحببتها وأنزلتها من علمك الواسع منزل الكرامة حتى تملكت أعنة الكلام فيها سوف تجازيـــك جميلاً ، سوف تحفظ تعاليمك بين كنوزها الغاليات ، سوف تفتح كتابها الذهبي لك وتضم اسمك إلى أسماء أبنائها الخالدين !

عاش الكونت دي جلارزا !

عاشت الجامعة المصرية !

عاشت نهضتها الحديثة !

وداع الاستاذين

أيها السادة ،

في أعالي الفلك صورة سماوية تدعى « الشلياق » أجمل نجومها نجمٌ من القدر الأول اسمه « النسر الواقع » وهو درة فريدة تبهر الأبصار زرقتها اللامعة . رصده علماء الفلك فوجدوه محجة الكواكب . وجدوا أنّ جميع الكواكب المنظورة تندفع نحوه في الفضاء وهو لبعده الشاسع لا يلتهي اليه نظامنا الشمسي إلاّ بعد ملايين الدهور . وقالوا إنّ حياة ذلك النجم قد تكون انقضت ، وإنّ نوره قد يكون خبا منذ عصور ، ولكنّ ما قام بيننا وبينه من مسافة هائلة يمكّننا من مشاهدة ذلك النّور أحقاباً طوالاً .

أيها السادة ،

النجم الذي لا تعرف منه الأنظار والمراصد إلاّ شعاعاً

ألقيت في الحفلة التي أقامها في فندق شبرد في آخر يناير سنة ١٩١٨ طلبة كلية الآداب العربية في الجامعة المصرية لتكريم الاستاذين الشيخ محمد الخضري مفتش أول اللغة العربية في وزارة المعارف الذي كان يدرّس في الجامعة تاريخ الأمم الإسلامية ، والشيخ محمد المهدي وكيل مدرسة القضاء الشرعي الذي كان يدرّس تاريخ الآداب العربية .

مجهول الأمس والغد ، نجد في الإنسان قوة تمزق عن كيفية تكوينه حجباً كثيرة . وما هي إلاّ تلك القوة التي تقدحها الرغبة فتنطلق باحثة بين ما يُرى من العوالم وما لا يُرى مستقرئة همس الضياء ، قائسة تموج الأثير ، متلمسة ضمير الورى . هي مفرقة الشعوب وجامعتها التي كانت حيناً بعد حين ضلالاً وهدى ، وظلاماً ونوراً ، ووهماً وحقيقة . هي مرشدة الأمم كيف ترفع الأمم رأسها لنيل حقوقها ، ومعلمة الأفراد كيف ترقي الأفراد مطالبها لنيل بعيد الغايات . هي مدونة الأسفار ، ومبتكرة الفنون ، ومستجوبة العلوم ، وغالبة الآفاق على شموسها ، والبحار على خفاياها ، والنفوس على أسرارها . هي التي شادت دهراً بعد دهر نينوى وبابل وصور وأورشليم وأثينا وروما والإسكندرية. هي التي تعلو بالمدنيات وتهبط بالشعوب لأنها أقوى من الشعوب والمدنيات ، وهي أبداً حاضرة متنقلة فعالة كالنور لا تُلمس ولا تنضب ، ولعل سرها سر النور وعنصرها عنصره . ألا وهي الفكر الإنساني .

لئن كان الفكر في الكهولة مهيباً برصانته وقدرته فهو في الشبيبة شيّق بتردده وحميته لأنه قوة في طور التكوّن. فما أحوجه في ذلك الطور إلى يد حكيمة تثقفه وتقوده وتغذيه بتلك المبادىء التي توسع الحياة وتكسبها علوّاً كبيراً . لذلك كان التعليم صرح المدنية ، وكانت المدارس مصابيحها ، وكان الأستاذ فيها كاهن النور ورسول العرفان .

وما التعليم سوى تصويب الفكر نحو غاية مُثلى ، يجمع في سيره إليها من الخبرة والمعرفة ما يؤهله لإدراكها وتقديرها ؛ ولا الارتقاء سوى مجموع تلك الخبرات والمعارف الطيبة نافذة ناموساً في الجهاد اليومي والأعمال العادية .

لا يحتاج الارتقاء إلى جيوش وجحافل تدخله بين الأقوام . ولكن انشر كتاباً مستحبّاً إلى أمة ترَ الدماء تُهرق لحفظ كرامته لأنه أتاها بما لا تأتيه الحروب . بلاد الإغريق صغيرة بمساحتها ولكنها كبيرة باشراق نورها على بني الإنسان . روما مدينة ليس إلاّ ، ولكن هذه المدينة تملأ العالم . اذا ذكر الإنجيل انحنت الرؤوس إجلالاً وتجمهرت النفوس حبّاً حول السيد المسيح : أستاذ الرحمة والغفران . وكفى التلفظ باسم القرآن لتهتز القلوب طرباً عَلىَ وفق الآيات والاسجاع مرتلة مع السور اسم النبي العربي .

أيها الأستاذان الجليلان ،

سنوات مررن وأنتما تثقفان من شبيبة وطنكما الفكر والخلق . وتفيضان عليها مــا حواهُ صدركما الرحب من بلاغة الكتاب العزيز وعلوم لغته الشريفة . بحث الأستاذ الشيخ المهدي في آداب العرب ، ففتح أمامنا تلك الكنوز الثمينة ، وأعلمنا أنّ العربي ذو استعداد أدبي وعلمي كبير . فوجدنا سائق الأظعان نظاماً إن لم نجده شاعراً ، ووجدنا الراعي عالماً بالهيئة السماوية ودورة الكواكب ، وخلنا المستعطي العافي فيلسوفاً حكيما ، وسمعنا قائد الجيش

خطيباً . وإذ رأينا فتاة العرب تبكي إذا بدموعها درر ترصع الأوزان ، فهبطنا إلى نفسنا فإذا هي قيثارة تئن شجناً كلما نقرت على أوتارها يدُ الفنّ ويدُ الألم .

واستخرج الأستاذ الشيخ الخضري تاريخ الأمم الإسلامية من مخابئه ، فسيّر أمامنا مواكب دول الفتوح منطلقة لاجتياح ما استطاعت من القارات الثلاث ، تحمل إليها مدنيتها مشيدة فيها معاهد التأديب ، مقيمة بنايات العلم ، رافعة بيوت الصناعة ، ضاربة للعدل رواقه ، وممددة للأمن أطنابه . يوم كانت همتها القعساء تستثير شجاعة الشجعان مندفعة نحو قصيّ الربوع كالسيل الجارف ، إنْ اعترضها في اندفاعها حصون نشرت عليها أعلامها ، أعلام الفخر . أوْ قام في سبيلها عواصم طوّقتها حصاراً مرددة أهازيج النصر . ونفوسنا لدى مشاهد العظمة العربية إنما تنقلب قواها تحفزاً وحماساً شديداً .

أيها الاستاذان الكريمان ،

لكما عندنا كلمتان : كلمة شكر وكلمة أسف . أما كلمة الشكر فنحتفظ بها في سويداوات القلوب لا تُمحى حروفها ولا يجفل معناها ، بل تظل نامية لنودعها حية صدر أجيال مقبلة . وأما كلمة الأسف فلا نفوه بها . لأنه وإنْ خسرتكما جامعتنا المصرية ، فأنتما على الدوام ربحُ شبيبة تستظلُّ بجاهكما مستوثقة بعهود لا تُخان .

وحياتكما الثمينة الـــتي وقفتماها على خدمة العلم مستودع فضل عميم سوف نغترف منه طويلاً إنْ شاء الله .

ولكننا نقول كلمة ثالثة هي هــذه : القيا نظرةً على الماضي تريا سهلاً يموج فيه نضار حصاد أوجدتهُ أياديكما . وانظرا إلى المستقبل تُبصرا مروجاً فسيحة تنتظر منكما بذور العرفان لتنمو لمصر حصاداً عسجدياً !

عاش الأستاذان الجليلان !

الإخاء

أيها السادة والسيدات ،

يعزّ عليّ أنْ يصمت الصغار لأتكلم أنا . لكني أسألكم أنْ لا تصغوا إلى صوتي فهو ضعيف لا تهتز له موجات الهواء إلا قليلاً . بل اصغوا إلى ذلك الصوت الهامس لكل نفسٍ في وحدتها حتى إذا اجتمع الأفراد جمهوراً ارتفع ذلك الصوت واختلطت معانيه بمعاني أصوات تحيط به ، فأصبحت الأصوات الكثيرة صوتاً واحداً شاملاً يهز القوم هزّاً مهما اختلفوا جنساً وعقيدة ومصلحة وميولا . يسمي علماء النفس هذا التأثير الواحد الذي يخضع له الجمهور « نفس الجماعات » أما سادتنا الأطباء الذين وجدوا العدوى في كل مكان فقد دعوهُ « عدوى عصبية » .

الكلمة مخيفة قليلا غير أنها عدوى مستحبة تتحد القلوب تحت تأثيرها ، فيطرب الجميع لطرب واحد ، ويتوجعون لحزن واحد فيسعون لمصلحة شريفة واحدة . في هذه العدوى شاهد على أنّ بين الغريب والغريب صلة قرابة شديدة ، وما تلك الصلة إلاّ مظهرٌ من مظاهر

ألقيت في حفلة جمعية القديس جاورجيوس السورية الأرثوذكسية في ٣ آذار (مارس) سنة ١٩١٨ .

الإخاء الكمين.

إنّ كلمة الإخاء التي ينادي بها دعاة الإنسانية في عصرنا ، ليست ابنة اليوم فحسبُ ، بل هي ابنة جميع العصور . وقد برزت إلى الوجود منذ شعر الإنسان بأنّ بينه وبين الآخرين اشتراكاً في فكرة أو عاطفة أو منفعة، وبأنهم يشبهونه رغبات واحتياجات وميولاً . يجب أنْ يتألم المرء ليدرك عذوبة الحنان ، يجب أنْ يحتاج إلى الآخرين ليعلم كم يحتاج غيره إليه ، يجب أنْ يرى حقوقه مهضومة يُزدرى بها ليفهم أنّ حقوق الغير مقدسة يجب احترامها ، يجب أنْ يرى نفسه وحيداً ، ملتاعاً ، دامي الجراح ليعرف نفسه أولاً ثم يعرف غيره ، فيستخرج من هذا التعارف العميق معنى التعاون والتعاضد . كذلك ارتقى معنى الإخاء بارتقاء الإنسان .

في جمعيات سرية وعلنية ، في جمعيات علمية وفلسفية ودينية وروحانية استُعملت كلمة الإخاء بين الإنسان والإنسان قروناً طوالاً ، حتى جاءت الثورة الفرنساوية تهدم أسوار العبودية بهدم جدران الباستيل ، وتعلن حقوق الإنسان مستخلصة من بين الأخربة والدماء والجماجم ، كلمات ثلاثاً هنّ شعار العالم الراقي : حريةٌ ، مساواة ، إخاءٌ .

حرية ، مساواة : كلمتان جميلتان يخفق لهما قلبُ كل محب للانسانية لكن – لا بدّ لكل شيء من « لكن » –

هل كان تحقيقها في استطاعة البشر ؟ ما أضيق معنى الحرية اذا ذكرنا أنّ مجموعة الكائنات تكوّن وحدة العالم ، وأنّ على كلٍّ منها أنْ يصل إلى درجة معينة من النمو مشتركاً مع بقية الكائنات في إكمال النظام الشامل . وفي وسط هذا النظام القاهر نرى الإنسان وحده ُ متصرفاً في أفعالهِ بشرط أنْ يخضع للقوانين المحيطة به والنافذة فيه . هو حرٌّ بشرط أنْ تنتهي حريته ُ حيث تبتديء حرية جاره ، وبشرط أنْ يعلم أنه حيثما وجّه أنظاره وأفكاره وجد نظاماً معيناً ؛ وأنّ حريته ُ ، كلّ حريتهِ ، قائمة في اختيار السير مع ذلك النظام أو ضده ، واستعماله للخير أو الشر ، للربح أو الخسران . فما أكثرها شروطاً تقيد هذه الحرية التي تندكّ لأجلها العروش وتتطاحن الأمم للحصول عليها !

أما المساواة فحلمٌ جميل ليس غير . لأن الطبيعة في نشوئها التدريجي لا تعرف إلا الاختلاف والتفاوت . أين المساواة بين النشيط من البشر والكسول ، بين صحيح البنية والعليل ورائة ، بين الذكي وغير الذكي ، بين الصالح والشرير ؟ كلا ، ليست المساواة بالأمر الميسور بل هي معاكسة لنظام حيوي إذا غولب كان غالباً قاهراً .

كلمة واحدة ، تجمع بين حروفها الحرية والمساواة ، وجميع المعاني السامية والعواطف الشريفة . كلمة واحدة تدلّ على أنّ البشر إذا اختلفوا في بشريتهم اختلافاً مبيناً

فهم واحد في الجوهر ، واحد في البداية والنهاية . كلمة واحدة هي بلسم القروح الاجتماعية ودواء العِلل الإنسانية، وتلك الكلمة هي الإخـــاء . لو أدرك البشر أخوّتهم لما رأينا الشعوب مشتبكات بحروب هائلة صرعت فيها زهرة الشبيبة ، وما زالت الدماء جارية في القارات الأربع وما يظللها من سماء ويتخللها من ماء . لو أدرك البشر أخوّتهم لما وجدنا في التاريخ بقعاً سوداء تقـــف عندها نفوسنا حيارى . لو أدرك البشر أخوتهم لما رأينا المطامع تدفع الأمم القوية إلى استعباد الأمم الضعيفة ، لو أدرك البشر أخوّتهم لما سمعنا في اجتماعاتنا كلمات جارحات يجازف بها كلٌّ في حـق أخيه ، وهي من أركان أحاديث صالوناتنا الجميلة . ولكن لننزلنّ قليلاً إلى ما هو تحـت السياسة والتاريخ والصالونات لننزلنّ إلى مهبط الشعب حيث الشقاء مخيم ، واليأس مستديم .

ما أوجع منظر اليد الممتدة للاستعطاء ! إنه يدل على احتياج الجسم إلى القوت ، ويدل خصوصاً على جوع النفس وفقدانها لتلك الأفكار التي تعلي المرء في عين نفسه ، ولتلك العواطف التي تجعله شاعراً بانـه جزءٌ مهمٌ من هذا العالم البديع . عواطف نبيلة ، وأفكارٌ عظيمةٌ ، لكنها تذبل تحت ضغط الحاجة المتتابع ، وتتلاشى مع استمرار الفاقة والذلّ والانكسار . إلى أين تذهبون أيها السائرون في مركباتكم الفاخرة ؟ إلى أين تسيرون أيها الضاحكون ؟

تتكلمون عن جمال الحياة وعظمة الكون ، وتذكرون بسمات الربيع وإخلاص الاصدقاءِ . أما تلك النفوس الشقية فلا تدري من ذلك شيئاً ، ما الإنسان في شرعها إلا عدوٌ لدود ، وما الحياة إلاّ سرير الغموم ومستودع البلايا . أنتم السعداءُ تستسلمون لعذوبة الحب وطهر الولاءِ ، وهم البؤساءُ يطوون على الحقد أحناءَ صدورهم ، ويكظمون حقداً تذكو جمرتهُ مع الأيام . وفي هذه الطبقة الجائعة الذليلة الدائمة الانفعال تكوّنت بذور ثوراتٍ هائلة نمت فاتسعت فزلزلت الممالك زلزالا .

غير أنّ فئةً من هذه الطبقة لا تعرف تمرّداً ولا تكظم حقداً ، وهي أوجع فئة ، لأنها تتألم صامتة ، ولا ترجو راحة وسلاماً إلاّ من الموت .

وإذا ظننتم أني أتكلم كشاعر يهيم في أودية الخيال ، فهاكم حقائق ملموسة : منذ أشهر قليلة انتحر شابٌ في الثامنة والعشرين من سنيهِ . كان له أمٌ جائعة ، وكانت أبواب الرزق مقفلةً في وجهه ، فألقى بنفسه في النيل تخلصاً من الحياة . بعد ذلك بأسابيع قليلة ، مات شيخ في الثمانين من عمره كان يستعطي على مقربة من جسر بولاق ، وقد أسفر التحقيق بعد موته عن أنه لم يتناول قوتاً منذ خمسة أيام .

في أواخر الصيف الماضي وجد بوليس الإسكندرية أربعة أيتام بلا مأوى ، سار بهم إلى المعاهد الخيرية ،

لكنّ معاهد البر حدّدت عدد مَن تقبلهم في هذه الاعوام بحكم الظروف الاقتصادية . فعاد البوليس بالأطفال إلى القسم حيث جلسوا يبكون ، ولمّا سئلوا عمّا يحزنهم أجابوا انهم لم يأكلوا منذ ماتت أمهم أي منذ ثلاثة أيام .

إني أتذرّع بصوت هؤلاءِ البائسين ودموعهم لأصرخ أن مثل هذه الفواجع يجب أنْ لا تكون ، ولأقول إنّ الاجتماع بأسره مسؤول أمام ضميره عن إهماله وقسوته . وإنه ما دام في وسطه شهيد واحد من هؤلاءِ الشهداء ، فهو قاتل جانٍ . فالاجتماع جسم واحد ، سواء شاء الأفراد أمْ لم يشاؤوا . والبشر على اختلاف طبقاتهم أسرة كبيرة واحدة . تلك سلسلة قيدتنا بها يد الله ، فمن حاول كسر حلقةٍ من تلك السلسلة جرح نفسهُ ، وكان لغيره مؤذياً . ليس من عار أنْ يكون المرء عليلاً في أسرته ، أو ضعيفاً بين إخوانه ، بل هناك امتياز يجعلُ الضعيف ، او الحقير ، او الجائع محبوباً أكثر من غيره ، لانه يحرك العطف والحنان في القلوب المتحجرة ، وينبه السعيد من إخوانه إلى واجبه نحو المحروم من نعم الحياة .

من المفكرين من يقول بإمكان حذف الفقر وملاشاة الألم . لكن ذلك مستحيل ، وسيظل الفقر موجوداً ما دام أحد الناس أوسع ثروة من غيره ، فكأن الآخرين فقراء بالنسبة إليه . ثم إنّ الفقر النسبيّ ممرّ لازم إلى الغنى ، وهو منبه للذكاء ، مهيج للرغائب ، تحتدم فيه

نار قوى عديدة ، طالما أطفأت جذوتها عيشة الرغد والهناء . أما الألم فناموس قهّار ، وهو المهذّب الأكبر الذي يعلمنا دروس الحياة كلمة فكلمة . هو النار المطهرة النفس من كل غشٍّ وفساد ، حتى تتركها جوهرة لامعة . هو دافع بالمرءِ إلى داخل نفسه حيث يجد قوّته واقتداره ، ويتعلم الرحمة والإشفاق . لأنّ الذي لم يرَ دموعه هاطلة على أرض صماء ، ولم يشعر بأنّ دماء قلبه تسيل نقطة بعد أخرى ، ولم يبصر حجاب اليأس مسدولاً بينه وبين البشر ، ذاك الذي لم يتوجع باحتياجه إلى التعزية كيف يمكنه أنْ يشفق ويرحم ؟ كيف يدخل إلى قلوب الغير ويلمس موضع اللوعة منها ؟ نعم الفقر والألم ضروريان للحياة . ولكني أقول بإمكان استئصال الفاقة . فالفاقة برص اجتماعي ، وكما تلاشى البرص من جسم الإنسان ، يجب أنْ تتلاشى الفاقة من جسم المجتمع . ولا يتم ذلك إلاّ إذا ترابطت منا الأقلية القادرة العاملة ؛ لا يتم ذلك حتى يذكر الأقوياء أنهم إخوة للضعفاء ، فينحنون على نفوس محزونة تضج بالأسى ضجيجاً ، ويرفعونها إلى مستوى يتعاضد فيه الجميع ويتساندون . لا يتم ذلك حتى يصير ناموس تنازع البقاء السائد في عالم الحيوان ناموس التعاون على حب الحياة السائد في عالم الإنسان .

ما هو النهر أيها السادة والسيدات ؟ وهل يكون نهراً اذا هو انبثق من مصدره ، وانصب في البحر دفعة واحدة؟

انما يتفجر ينبوع النهر في أعالي الجبال ، فيهرول مقهقهاً على الصخور ، حتى اذا ما حشر وسط الشواجن الخضراء ملأ الوادي ألحاناً وأنغاماً . يجري في الصحارى والقفار فتنقلب القفار والصحارى مروجاً خصيبة وجنات زاهرة . يسير في البادية والحضر على السواء فيروي سكان المدينة وأهل القرية بلا تفريق بين الشريف والحقير . يرضع الأشجار بتغلغله في صدر الأرض الملتهب ، ويغذي الأثمار والنبات ناظماً لآليء في ثغور الورود . وكلما وزع من مياهه زادت مياهه اتساعاً وتدفقاً ، فيتابع السير بعقيقه الفخم واسع العظمة رحب الجلال . حتى اذا ما جلب النفع على الكائنات ، وملأ الديار خيراً وثروة وجمالاً ، رأى البحر منبسطاً لاحتضانه ، فشهق الشهيق الأخير ، وانصبّ في صدر البحر مهللاً مكبراً . كذلك عاطفة الأخوّة لا تكون أخوّة حقيقية إلاّ إذا خرجت من حيز الشعور إلى حيز العمل . تتفجر عذوبتها على ذرى الاجتماع ، وتجري نهراً كريماً بين طبقات المجتمع ، فتلقي بين المتناظرين سلاماً ، وبين المتدينين تساهلاً ، وتنقش محامد الناس على النحاس ؛ أما العيوب فتخطّها على صفحة الماء . تساعد المحتاج ما استطاعت بلا تفريق بين المحمدي والعيسوي والموسوي والدهري . ترفع المسكين من بؤس الفاقة ، وتنشر على الجاهل أشعة العلم والعرفان ، وتفتح أبواب الرجاء لعيونٍ أظلمتها أحزان الليالي . فكم من درةٍ في

أعماق البحر لم تسرّ بها النواظر لأن يد الغوّاص لم تصل إليها ! وكم من زهرة نوّرت في القفر ، فتبدد عطرها جزافاً في الهواء ! إنما الإخاء يزيح بيده الشفيقة الشوك عن الزهرة المتروكة ، ويرفع لها جدراناً تقيها ريح السموم الفتاك .
هو العين المحبة التي ينفذ نظرها إلى أعماق النفس فترى أوجاعها . وهو الهمة العاملة لخير الجميع بثقة وسرور ، لانه القلب الرحيم الخافق مع قلب الإنسانية الواجف .

الإخاء ! لو كان لي ألف لسان لما عييتُ من ترديد هذه الكلمة التي تغذت بها الضمائر الحرة ، وانفتحت لها قلوب المخلصين . هي أبدع كلمة وجدت في معاجم اللغات ، وأعذب لفظة تحركت بها شفاه البشر . هو اللّين والرفق والسماح ، كما أنه الحِلم والحكمة والسلام . لو كان لي ألف لسان لظللت أنادي بها « الإخاء ! الإخاء ! » حتى تجبر القلوب الكسيرة ، حتى تجف الدموع في العيون الباكية . حتى يصير الذليل عزيزاً ، حتى يختلط رنين الأجراس بنغمات المؤذنين ، فتصعد نحو الآفاق أصوات الحب الأخويّ الدائم .

أحييّكَ يا معهداً أحسنت عائدة على البائسين ، فضممتهم إليك ليشعر اليتيم بأنّ له والدين إذا قضى الوالدان . وعنيت بصغارٍ وصغيرات هانوا على مصائب الدهر ففتحت أمامهم سبل الرجاء ، وعلمتهم نشيد العصر ، وهو نشيد الحياة القائل :

كنْ ابن مَنْ شئتَ واكتَسِبْ أدَباً
يُغنيكَ محمودهُ عَنْ النَّسَبِ
إنَّ ألفتَى مَنْ يَقولُ هـا أناذا
ليْسَ ألفتَى مَنْ يَقُولُ كانَ أبي

أحييكم أيها المحسنون أغنياء كنتم تعطون البائس من ثروتكم والضعيف من قوتكم ، أمْ علماء تفتحون عيني الجاهل على آفاق الضياء ، وتذكّرون الإنسان أنّ بينا جسده مقيد بقيود المادة ، فإن روحه تقطن دائرة النور الأطهر . وإذا صدق اوغست كونت بقوله : إن الإخاء يجب أنْ يكون ديناً اجتماعيّاً عامّاً ، وإنّ الإنسانية يجب أنْ تكرس أعياداً لأعاظم رجالها وكبار محسنيها ، فأنتم أولئك الأعاظم والمحسنون ، وبدلاً من أنْ تتلاشى تحيتي على أجنحة الهواء ، وددت أنْ أخطها خالدة بأحرف النُّور على جبهة السماءِ !

أيها السادة والسيدات ،

لقد شاد قدماءُ المصريين أهراماً تناطح الجوزاء عظمتها، وتحير العقول أشكالها الهندسية ، ورموزها السريةُ . ونحن أبناء هذا العصر ، نريد رفع هرم جديد يكون أعمّ منفعة وأوسع فائدة . ذاك منارة الصحراء ومدفن الفراعنة ، وهذا منارة البؤساءِ ومدفن الذلّ والشقاء . ذاك يتركب من أحجار ضخمة ، وصخور منحوتة ، وهذا يتألف من مدارس للبائس واليتيم ، وملاجيء للعجزة ، وجمعيات برّ

تساعد الأرامل والمحتاجين وتمهّد سبيل العمل للعاملين . ذاك يلحم فيه بين الحجر والحجر طين الأرض ، وهذا يربط معاهده تبادل الرغائب الشريفة ، ويسير أعماله اهتمام الأخوّة العالية . ذاك رُفع بعرق البؤساء ودم العبيد ، وهذا يرفع بعطايا المحسنين وكرم ذوي الأريحية . ذاك لم تفهم أسراره إلاّ الأقلية النادرة ، وهذا تتهذب في مدارسه الأكثرية البائسة فتسمو في سلّم الإنسانية ، ويرتقي بارتقائها الاجتماع باسره .

فيا رُسُل جمعيات البرّ في هذا الاجتماع الجليل ! ساعة تعودون إلى إخوانكم وإخواننا من مسلمين ومسيحيين ، قولوا لهم : إنكم رأيتم هيكلاً جديداً من هياكل الإحسان ، ومعهداً ينضمّ إلى معاهدكم السامية .

قولوا : إن الرجال يعملون فيه بسخاء وغيرة وهمة تتزايد مع الأيام ، وإن السيدات يسابقنهم بما عندهنّ من عطف وذكاء وحنان ، لأنّ أشرف موقف يظهر فيه حب المرأة هو موقف البر والإحسان . وإذا امتدت لكم من هذا المعهد الحديث يد ، فلا تسألوا هل هي مصرية أو سورية أو أجنبية ، بل صافحوها تعلموا أنها يدكم بعينها لأنها يد الإخاء الإنساني العظيم !

فضل الآداب

يرجع أثر الصناعة والتجارة في تكوين العلائق الاجتماعية إلى عهد أبعد كثيراً من يوم وطأ الفينيقيون الشاطىء الإغريقي للمرة الاولى ، وربما انتهى بنا إلى فجر تاريخ العمران . ولولا تلك العلائق ما اختلطت الأقوام ، ولا تمازجت الأجناس ، ولا تكوّنت المدنية ، ولظلت الجماعات في وحدتها الاثنغرافية ، وانقطاعها الحيويّ ، بعيدة بعضها عن بعض . ولو كان ذلك لفنيت العشائر وانقرض النوعُ في زمنٍ قصير .

وجدت الصناعة والتجارة فزاد تبادلها في ثروة الجمهور ، وجلب الرخاء فتعدّدت مُثلُ الانتاج ، وتوفّرت للأفراد سهولة المعيشة . ولئن أثّر ذلك التبادل في الظواهر الحسية ، وأتى بتغيُّر محتم في عادات البلاد ومشارب أهلها مرهفاً عندهم تطلُّب الكماليات ، فانه لم يفلح يوماً في التقريب بين الشعوب وحذف ما بينها من نفور وخصام ، وتوحيد الرأي والكلمة منها . فهو إنْ لم ينبه فوراً الحسد

ترجمة الخطبة الإنجليزية التي تليت في حفلة أقامها في فندق شبرد طلبة قسم الآداب الإنكليزية في الجامعة المصرية لتكريم أستاذهم في أواخر نيسان (ابريل) سنة ١٩١٨ .

والطمع وحبّ المنافسة ، وإنْ لم يوقدْ حروباً ويُقمْ معارك هي من الهول والفظاعة مـا شهده العالم في أيامنا ، فهو يترك الناس إلى وقت في خلوّ غافلين عن المزاحمة والمقاومة، راكنين إلى التمتع والتلذّذ ، لأنه قاصر على عالم المحسوس السطحيّ – ذلك العالم أسير التغير والتبدّل وعبد الاختلاف والتعدّد على الدوام – .

إنما الشعوب كالأفراد لا يتفاهمون إلا بالتآلف الفكري ، ولا يتوحدون بغير التمازج الروحي . متاعُ المصانع ونتاج المعامل يحفظ أبداً طابع الشعب الذي ابتكرهُ أو عالجه . ولكنّ أهل الفكر والعبقرية لا يُسبَكون في قالب ولا يحملون طابعاً ، بل يخصون الإنسانية بأسرها ، ويخدمون الجميع بـــلا حصر ولا استثناء . يتكلمون ويعمـلون ويكتبون ، وسواء هم أفصحوا عـن نظراتهم ومشاعرهم باليونانية واللاتينية او العربية والهندية ، فإنما هم يترجمون عن حاجات بشرية ، ورغبات إنسانية تجمهرت في نفوسهم الكبيرة الحساسة .

ما غرض الأدب والبيان سوى التعبير عـــن الفكر والعاطفة كلاماً وكتابةً ، ونقل صور ذهنية خفية إلى عالم الاطلاع والاستعراض . يفضي كل شعب بسرائر ضميره على أسلوب خاص ، ويطلق شعراً ونثراً ما كمن فيهِ من كآبة وحنين إلى مثلٍ أعلى هو قدوته وقبلته . حتى إذا ما أودع الكتب ما يسميه آداباً وفلسفة وعلماً ، وبعث

بتلك الكتب إلى البلاد القصية ، فكأنما هو ينفذ رسالة حُبٍّ وتنبيه وتفاهم إلى إخوته وأخواته بالحياة والإنسانية والقدَر ؛ بل كأنما هو يريهم من نفوسهم وجهاً جديداً وشكلاً طريفاً . ليست الكتب لمؤلفيها ، ولا الآداب لموجديها بل هي إرث من تطلبها وملك من انتفع بها . وليس الفرد في ذاته أهلاً للإعجاب ، إنما هي الإنسانية عجيبة بما تتلازب فيها من مدهش القوى والممكنات ؛ الإنسانية وحدها عظيمة بما تأتيه من الأعمال الباهرات .

أما النوابغ فأفراد اختارتهم الحياة لإدراك وسط يعيشون فيه والوصول الى أقصى رغائبه وألبس نزعاته ، فهم بذلك أقرب من سواهم إلى أغوار الروح الإنسانية ، وأسرع فهماً لحركاتها وخصائصها ، وأبرع حذقاً في التعبير عنها . وتقوم كل أهميتهم باتصالهم المتين بالفكر الشامل الدائم الإبداع ، وكأن قلب الإنسانية العظيم ينبض الوقت بعد الوقت في قلوبهم الصغيرة ، فيظلُّ صدى نبضاته متردداً في صرير أقلامهم . لذلك كانوا مازجين دماءهم بدماءِ الأنام ، خالطين أنفاسهم بأنفاس بني الإنسان أجمعين، شاعرين مع مراتب الخليقة بأسرها بالحاجة والتعاون ، والتوحد والتغاير ، والحزن ، والبكاء ، والسمو والحقارة ، بل شاعرين باقتدار الكون وعجزه المتتابع في كيانهم . ولذلك كانوا أنفع من الجنود وأحسن عائدة .

السيف قاهر معاقب ، أما الفكر فمثقف ملطف .

السيف يغزو الممالك داحراً كتائب وجحافل ، ويشهر الحروب واضعاً بين الإنسان والإنسان جدران حقدٍ كثيفة؛ أما الفكر فلسيفهِ خفة الهواء ، ولطف النسيم ، وهول الصواعق . وبذلك السيف الذي يدعى القلم يُشهر الفكر حربه المجيدة حرب الفرد على الجمهور ، حرب الروح على المادة ، حرب الحكمة على الزهو ، حرب الحصافة على الغرور ، حرب العدل على الطغيان ، حرب الكرامة على التطفل ، حرب الحقّ والواجب على التهجم والخمول ، بل حرب العمل والصلاح السائرة بالإنسان نحو صروح الارتقاء والضياء .

بالقلم الذي هو أداة البيان ، وبالقلم وحده ، يبرز كل شعب آدابه أي عصير روحه ، وهو عصير جزء من روح الإنسانية . ينتبه لنفسه باتصاله بقلب الإنسانية وفكرها ، فيلفتنا إلى أنفسنا وما كمن فيها من قوة إذ يصلنا بفكر الإنسانية وقلبها . لأن كلّ نفس فردية قيثارةٌ ذات أوتار تجاوب كلّ قرار ، وتهتز لتعزف متعاونة مع جوق النفوس المهيب . فان كان ثمة مشاهد بهاءٍ خفيت علينا ، أو أناشيد طرب لم تطرق سمعنا ، أو لجج إحساس لم نذهب في غورها ، ما فتحنا إدراكنا للتأثيرات الآتية من الغرباء ، أفراداً كانوا أم جماعات ، إلاّ اتسع الأفق أمامنا ، فأقبلنا على اكتناه معاني الحياة ، ودنونا من خفايا السناء ومكنونات

القوى . وليس أقـدر في التقريب بين الشعوب من الإلمام بألسنتها ، فنصير كأننا هي أيضاً بعد أنْ كنا نحن فحسبُ . وبهذا الازدواج أو التضاعف تزدوج أو تتضاعف منا الخبرة والفطانة والإدراك ؛ وإلا فقل إننا نتسع فهماً ، ونكبر روحاً ، ونسمو مطالب ، لأننا أصبحنا جماعة في واحد . ألم يقل الشاعر العربي : إن كل لسان بالحقيقة إنسان ؟

نعم ؛ إذا عرف امرؤٌ لغة شعب تلاشى في نظره ما يحيط بذلك الشعب من غرابة وإبهام ، وكلما تقدم في تفهم الآخرين إنجلى له تشابه النفوس للنفوس ، وعثر على ما بين الناس من نسب الحاجات والنزعات والآلام والمسرّات . إذْ ذاك يعلم أنّ الإنسانية واحدة في كل زمان ومكان . ورغم الفروق والحواجز والعـادات والاصطلاحات ، ورغم اختلاف اللغة وتقاتل المطامع لا تلبث أنْ تظهر له بالتدريج أخوّة الإنسان للإنسان .

* * *

لئن كان لكل لغة آداب ، فميزة اللغة الإنجليزية أنّ لها آداباً أربعـــاً : الإنجليزية والإسكتلندية والإيرلندية والأمريكية . ولئن كتبت جميعاً بالإنجليزية فـإن لكلٍّ روحها الخاص ومزاياها الخاصة .

وعندما نحن ، أبناء الشرق ، نستعمل هذه اللغة ذات

الفواصل الوعرة ، والمواقف الحادة ، فكأننا نتبيّن في لمحة جهود الإرادة القومية التي حلّت مع الزمن في مقاطعها ورناتها . ما أتمّ تلك الألفاظ قوة وأنفذها عزماً ! إن كل ما فيها من صوت ونبرة وتركيب وعرقلة وقدرة مكتسبة من استعمالها المتواصل ، يسطو علينا فيجعلنا إلى حين مماثلين لجامعي شتاتها ، ويتناول روحنا الشرقية فيوحّدها وقتاً مع الروح الغريبة المضمرة فيه .

لقد كان يسرّنا ويفيدنا جميعاً أنْ نستمع لدروس الآداب الإنجليزية في هدوء قاعة الدرس بالجامعة المصرية بعيداً عن دويّ المدافع وجلبة أخبار الحرب ، بعيداً عن حركات الاجتماع وضوضاء العالم ، بينما تقبل ليالي الشتاء باسطة علينا رواق شفقها المثقل بالأحلام والتأملات .

لذلك لا يمنعنا الآن تمتعنا بجمال الربيع من انتظار الخريف القادم حيث تعود ، يا سيدي ، إلى إلقاء محاضراتك القيّمة . سوف تكثر الحركة في الشارع كالمعتاد ، فيواصل المنجد جارنا العزيز دقّ المسامير العديدة في المقاعد الخشبية ، وتُتابع السيارات والمركبات مرورها بلا انقطاع ، وتظل أصوات المدينة على ما هي هامسة متعالية هاتفة . ولكن سوف لا نعير ذلك التفاتاً ولا نهبه اهتماماً . بل نتفرّغ لسبر غور الروح الإنجليزي الجامع بين الاشكال والوضوح ، والامتياز والبساطة ، والحرية والخضوع ، والأنفة واللين — ذلك الروح الجذّاب بماديته وروحانيته وقربه ومناعته —

سوف ننسى العالم الخارجيّ سعداء بأنْ نعيش ساعة في عالم المعنى العالي ، مستنشقين نسيماً عذباً تثيره ذكرى نوابغ الماضي ، غائصين ـ فكراً وروحاً وانتباهاً في أوقيانوس وحيٍ وجمالٍ ورفعة تتكوّنُ أمواجه الفخمة مما تعرضه لدينا من أسماء أولئك الأماجـــد ، وأفكارهم العظيمة ، ومصنفاتهم الخالدة .

الدموع

مصر العزيزة التي سبقت الأقطار العربية* نحو قمة الارتقاءِ ، مصركم أيها المصريون ، ومصرنا نحن السوريين ، قد بلغت في ارتقائها مرتبة رفيعة . وعلى ذلك شاهدان : الشاهد الأول هو أنه في وسط هتاف الوطنية الشامل ارتفع هتاف الإنسانية السامي . ارتفع صوت لا ليتكلم عن ماضي الأمة ومستقبلها ، ولا ليعظّم نوابغها وأبطالها ، بل ليذكّرها بأحقر أبنائها العراة الجائعين . صوت الرحمة والإشفاق انضم إلى صوت الحماسة والفخر ، فرجّعت صداه جميع القلوب ، وكان الشاهد الأول على وقوف مصر في مرتبة رفيعة . والشاهد الثاني : انا الشاهد الثاني ، ليس أنا بصفتي الشخصية ، ولا أنا وفاء سوريا المصرية فحسبُ ، بلْ أنا الفتاة الشرقية يشركها الرجل في جليل أعماله ويفسح لها مجال القول والعمل في الاصلاحات القومية . أنا تلك التي خفَت صوتُها دهوراً لأنّ الرجل كان كما كان . أما اليوم وقد كبر الرجل وتعالى ، فقد أوقفني في مكاني

---

* ألقيت في الاجتماع الذي عقد في الأوبرا مساء ١٦ مايو سنة ١٩١٩ ، لإنشاءِ « ملجأ الحرية » ، إجابة لطلب الدكتور عبد العزيز نظمي الذي دعا إلى إنشاء ذلك الملجأ إبان الحركة الوطنية .

جاعلاً صوتي يتصاعد حرّاً ويسطو قاهراً فعّالاً ، لا لأنهُ صوت فتاة بل لأنـــه صوت الفرد الإنساني المكمّل ، وصوت عضو في المجتمع المصري الراقي .

كنت لابسةً أثواب الحداد فاستبدلتُها لأقف أمامكم . إنما يُلبس السواد حزناً على الموتى . ولكن الأمـة التي تنبض فيها حياة جديدة تدفعها إلى تقدير كرامة المرأة ؛ الأمّة التي ضمّت إليها جميع عناصر النزلاءِ حتى جعلتهم شاعرين بأنهم أجزاء حية منها ؛ الأمة التي تذكر البؤساء في غليان حماستها الوطنية ، وتنحـني على التعساء في أحرج مواقفها التاريخية ؛ تلك الأمة لا يجوز لفتياتها لبس السواد ، بـل خليق بهنّ أنْ يتّشحن بالبياض النقي ، لون الصفاء والسعادة والهناء .

في هذا الاجتماع الفخم ، تسمعون من شعرائنا السحر الحلال ، ومن خطبائنا بليغ الأقوال ، أما أنا فاسمحوا أنْ أحدثكم في موضوع هو كل ضعف المرأة وكل قوّتها معاً ، ألا وهو الدموع ! ..

أيها السادة والسيدات ،

إن للشعراءِ الذين في كل واد يهيمون لمحات وحيٍ فيها يصدقون . هم الذين شبهوا الدموع باللآلىء فمـــا أتمّ هذا التشبيه مجازاً وحقيقة ! كيف تتكون اللؤلؤة ؟ هناك في البحار الحارة يعيش حيوان الصدف اللؤلؤي ، حتى اذا اصطدم بصخر أو بمادة أخرى صلبة تشقق منهُ الجسم ،

واستقرّت في تلك الجراح ذريرات الرمل ، فتكوّنت عليها أثمن درر العالم . فما اللؤلؤة إذاً إلاّ ابنة الألم الطويل ، وثمرة لوعة مستعصية ، وداء دفين . وكيف تتكون الدمعة ؟ ما أشبه حكايتها بحكاية اللؤلؤة ! إنه لا بد لكل أحد من الحصول على مجموع معلومات يتكفل بإيصالها إليه اثنان : الأحوال ، والبشر . وأهم تلك المعلومات وأبقاها في النفس لا يأتي إلاّ عن طريق العذاب والألم ، كما أنّ أعمق الكلوم قد تأتينا من أحب الأيدي إلينا . وحينما ينجرح القلب تحت ضغط التأثير الشديد إذْ ذاك تتكون لآليء الدموع في جراحه ، إذْ ذاك تنهمر العبرات واحدة بعد أخرى ، كأنما هي دقات ناقوس صامت حركتهُ يد الحزن ، فسالت دقّاتهُ درراً ذائبات .

إن للدموع اثراً ليس يمحى . قد ينسى المرء ساعات الأنس ، ولكنه لا ينسى ساعات البكاء لأنها تلقّنه أعظم دروس الحياة وهي أهم مراحل ارتقائه . وقد يكون جاهلاً كل لغة وكل معنى ، غير أنه يفهم لغة البكاء ومعناها لأن جمرة الحسرة واحدة في جميع الصدور ، وما كان البكاء إلاّ إرثاً مشتركاً بين بني الإنسان . على أنّ ما نسميه دموعاً ليس إلا جزءاً من السائل الدمعي العظيم الأهمية لحفظ الصحة . إنّ هذا السائل خفيٌّ تنشره حركة الأجفان على مرآة العين ، فيصقل منها الأعصاب ويحفظ المآقي من النشف والجفاف ؛ فإذا هطلت منه كمية كبيرة ، مرضت

العين ، وضعف البصر وصـــار معرضاً للذبول والانطفاء . ومن جهة أخرى اذا انقطع السائل الدمعي حيناً أو أفرز كمية قليلة ، فقدت العين تألقها البهي ولحقها التهاب وتقرُّح. كذلك تهبط كمية دممية معينة إلى مركز حاســـة الشم حيث تمتزج بالهواء الداخل إلى الرئتين فتنيله من الرطوبة المقدار اللازم .

إني أستميح عفو السادة الأطباء لتهجمي على موضوع ليس لي . ولكـــني أرى أنّ الدموع الكثيرة في عيون البؤساء عنوان الفناء . أما الدموع القليلة في عيون السعداءِ فضرورية لجسم الاجتماع ضرورتها لجسم الإنسان . أهل الفاقة من الأمة عينها الرمداء ، وأهل اليسر عينها النجلاء . فإنْ لم يبكِ السعداءُ يوماً أظلمت منهم البصيرة ، وتحجّر الفؤاد ، وجهلوا معاني الكآبة وحقيقة الإخاء . وإنْ لم ترطّب دموع العطف هواءً يستنشقه المجتمع فسد الهواء وامتلأ بفحيح الأفاعي وبذور الشقاء . وان لم تداوِ الأمة منها العين الرمداء انحل التضامن واختل التوازن وامتدت القروح قليلاً قليلا إلى العين النجلاء .

قال الدكتور ويلسن في خطبة ألقاهـا في إيطاليا : « إنّ قلب العالم يخفـق اليوم ليس في الخنادق وميادين القتال فحسبُ ، بل هو خافق في معمل العامل ، وكوخ الفلاح ، وحقل الزارع » .

صدق الرئيس المحترم ، ولكنه تكلم كفيلسوف فقط .

إنّ قلب العـالم خافق ، أوجع خفقاته في صدر العامل الذي لا عمل له ، والزارع الذي لا حقل له ، وفي صدر اليتيم الذي له جسم يعذبهُ وليس له من يهـتم به ويحنو عليه . إنّ قلب العالم خافـق ، أوجع خفقاته وأشدها هولاً وخطراً في صدور غلمان الأزقة ، ونزلاء الأرصفة من شيوخ ونساء وفتيات وأطفال يتسولون ويتأوهون ، ونحن نعرض عنهم لانهم ليس فيهم ما يتطلبه ذوقنا المتعجرف من أناقة وكياسة ! أنا ما رأيت عمارة تزخرفها يد الباني إلا خنقتني الغصات إشفاقاً على من لا مسكن لهم . ولا وقع نظري على الأثواب النفيسة والجواهر المتألقة إلا التاع قلبي على أيتامٍ ليس عندهم ما يلبسون . ولا دخلت مقاصف سهراتنا وأفراحنا ، أوّ شهدت أفواج الوافدين على (سولت، وجروبي) ومجال الملاهي والسمر الكثيرة ، إلا ضاقت مني النفس كمداً على فتيات مصريات طالما رأيتهنّ باحثات بين ما تلقيه المنازل الكبرى عن فتيت يصلح للغذاءِ . عن فتيت يصلح للغذاء ؟ أيقال هذا في مصر ، ويجري مثل هذا في مصر أمّ الجود والخيرات ؟ أواه ! إنك لتهتزين الآن يا شهامة الرجال ! إنك لتحزنين أيتها الأريحية المصرية ، وتقومين محتجة على قولي . إنّ هــذا القول الأليم أثبته حزينة أنا أيضاً ، وباسم السخاء المصري أحتج صارخة : إنّ هذه الفواجع لا تجوز ولا ينبغي أن تكون في مصر !
— حتى أنت يا عيون الظلام ، أيتـها الكواكب المحدّثة

بعظمة الوجود وخلود الضياء ، يا طالما رصدتك وقد خلتك في قلب الشقي حروفاً وفي عيني البائس دموعاً ! —

هاك الشوارع الوطنية والأحياء الأوروبية جبْها طولاً وعرضاً ، في كل مكان تلقَ الأعضاء المشوهة والعيون المظلمة وذل اليد المستعطية ، وفي كل مـــكان ترتفع العين المصرية دامعة ! سلوا الأطباء من ينشر جراثيم الأمراض ، وسلوا المصلحين من يقلق الأمن والنظام ، وسلوا المفكرين عن ذاك الشيء الذي يسمونهُ « سرطان الاجتماع » ، وسلوا رجال القضاء عن أكثرية المجرمين . بـل سلوا تلك اليد المجهولة التي تنشر الراية السوداء على السجون ، وسلوا الجلاد أيُّ الأعناق تمر بين يديه لتحضنها حبال المشانق... المشانق ! كلمة رهيبة ! ميتة ذليلة يشتريها الجاني بما هو جانٍ . يجرُّه القنوط والجهل والحاجة والعادة إلى ارتكاب الجريمة ، فيلقاه عدل المجتمع بالعقاب الشديد . ولكن هذا المجتمع الذي يقتل الجاني بأنانيته وإهماله قبل أنْ يقتله بعدله ، هـذا المجتمع الذي يعدم نفس الجاني مرات كثيرات قبل أنْ يعدم جسده مرة واحدة ، ترى لماذا لا يسأله ولا يطالبه أحد ؟ ألأنهُ قوي قادر غني ؟ ألا لله در الشاعر القائل :

والعَدْلُ في الأرْضِ يُبْكي الجنَّ لو سَمِعُوا
بـــهِ ويَسْتَضْحِكُ الأمْواتَ لَوْ نَظَرُوا

فَالسِّجْنُ وَالْمَوْتُ لِلْجَانِينَ إِنْ صَغُرُوا
وَالْمَجْدُ وَالْفَخْرُ وَالإِثْرَاءُ إِنْ كَبُرُوا
فَسَارِقُ الزَّهْرِ مَذْمُومٌ وَمُحْتَقَرٌ
وَسَارِقُ الْحَقْلِ يُدْعَى الْبَاسِلُ الْخَطِرُ
وَقَاتِلُ الْجِسْمِ مَقْتُولٌ بِفِعْلَتِهِ
وَقَاتِلُ الرُّوحِ لا تَدْرِي بِهِ الْبَشَرُ (١)

ألا يا أيها المطربونا بنشيد الحرية العظيم ، هلاّ ذكرتم أنّ للحرية جناحين ؟ في قدم الأمة أغلال السقام وقيود الهوان فكيف بلا تكسير هذه الأثقال تطيرون ؟ ألا قفوا أمام المجرم خاشعين ! إنه كان في حاجة إلى العطف والمؤاساة، لكنّ المجتمع احتقرهُ ونبذه ، فاندفع يتدهور في هاوية الشرور . مَن منّا يدري كم ألهبت الحسرة فؤاده ، وكم أدمت العبرات مقلتيه ؟ ألا احنوا الجباه أمام قوى حصرت فيه ولم تهتم به يد الرعاية لتبرز إلى الوجود خيراً. احنوا الجباه أمام فتيات الشارع البائسات ! إنّ فيهنّ شعوراً لطيفاً تنهشه كل لحظة أنياب الفاقة ، وفي عيونهنّ أشعة الذكاء والحنان يحجبها ليل المسكنة وظلام الدموع ، وبين شفاههنّ كلمات المحبة منسيات لأنهن لا يستعملن إلا كلمات الاسترحام والاستعطاء ؛ إنهن بحر البشرية العميق الوجيع ! احنوا الجباه لذكر من ندعوهم الرعاع والغوغاء !

(١) من كتاب « المواكب » لجبران خليل جبران .

إن عندهم قلوب رجال ونفوساً أبيّة لو كنتم لها مهذبين.
إن اليد منهم لم تخلــق للتدمير والنهب والبطالة ، وأنتم لمطالبون بجعلها يداً أمينة نشيطة عاملة لخير البلاد ، يداً تحمل بكفاءة وكرامة القلم العربي ، والسيف الشرقي ، والعلـَم المصريّ المفدّى ! (تصفيق حاد متتابع) .

إني أقبل هذا التصفيق الحماسي أيهـا السادة ، أقبله بفخر ، وأقدمه إلى الدكتور نظمي بـــك والقائمين بهذا المشروع الخطير . أقدمه إلى الأيدي الرحيمة التي ستنقلب تحت لمسها دمـــوع التعساء بسمات ، وإلى المحسنين الذين ستقف عطاياهم في وجه الفاقة سدّاً منيعاً . لقد تصافحت مصر وسوريا قبل اليوم في مواقف أدبية كثيرة ، ولكنهما لم تقفا جنباً الى جنب في أشرف من هذا الموقف ، موقف الدعوة إلى البر والإخاء . وتصفيقكم هذا أثمن ما عندي في هذه الدقيقة فأقدّمه تذكار ولاء وإعجاب وإجلال من سوريا المصرية إلى مصر الكبيرة البذولة الأريحية !

أيها السادة والسيدات ،

إنما النيل مدين بفضله لسحر الدموع . ضـــاع الإله اوزيريس يوماً فالتاعت الإلهـَة إيزيس لفراقه ، وجلست على شفة النهر تبكيه . إذْ ذاك اضطربت أعماقك ، أيها النيل العظيم ، فاندفعت متدفقاً جاعلاً من ربوعك التربة تبراً ، تاركاً سهولـك التاريخية في ربيع دائم ! كل عام يهيجك ذكر دموع آلهة الأسرار والأشجان فينتظم منك الفيضان

وفيّاً . وستظل على العهد أميناً ما بقي أبو الهول محدقاً في الفضاء ، وبقيت المجرة منبسطة في عقيق السماء !

من منا لم يبك ولو مرة كربّة الوادي ؟ أيّ بشر لم يضف إلى بحر العبرات الإنسانية دمعة واحدة تعلّمه نبل الإحسان وعذوبة الإخاء ؟ ألا إنّ كلّنا عليل سقيم ، وفي قلبه حروق الزفرات والأحزان . فانهضي الساعة يا ذكرى الدموع أمامنا جميعاً ! إنجلي يا دموع الافراح ودموع الأتراح ، دموع العزّ ودموع الذلّ ، دموع الفراق ودموع التلاق ، دموع اليأس ودموع الرجاء ! أنتِ التي تثيرها فينا نوائب الأيام وإيلام الغرباء ، وأنت التي تضعها في عيوننا أسماء الأحباب . دموع الماضي الذي لا ينقضي ودموع الحاضر القوي بتأثيره . كلّكِ ، كلك أيتها الدموع التي لا إسم لكِ في لغات البشر ، لأنك نثرات الأرواح الغاليات ، وأجزاء من العمر متطايرات ! إنجلي لتنبّهي كل ما جُمع في الروح المصري من مجد الفراعنة وعظمة الإسلام ، إنجلي أمامنا متوهجات لاذعات كالنار ، ليحوّلك الألم رأفة وكرماً ! إذْ ذاك تذكر اليد المصرية أن النيل قد طبع عليها رسم سخائه ، فتتداولك الهمم الشماء وتبلور كلا منك حجراً متيناً يقوم به « ملجأ الحرية » !

تأبين باحثة البادية

سيداتي ،

لما اجتمعتُ بباحثة البادية للمرة الأولى في ١٩١٤ ، بعد تصفح مجموعة « النسائيات » لم أستشعر بأنه قدر عليَّ أنْ أقف لتأبينها عمّا قريب . يومذاك لم أشعر إلاّ بجاذب تخطّى بي من دور الإعجاب بقلمها إلى دور الميْل إلى شخصها ، لأنها كانت من الذين خصتهم الطبيعةُ بقوةٍ مغناطيسية تجذبُ الغريب فيفطنُ لنفسهِ وقد وجد فيها مكاناً خالياً ينتظرهم منذ زمن طويل . وليس موجد تلك القوة ما يسميه البشرُ جمالاً وذكاءً أو لطفاً وظرفاً ، بل إنّ مستودعها جسمٌ أجوف قائمٌ في الجانب الأيسر من الصدر ؛ ذلك الجسم الذي ما ذكرهُ حتى اكثر الناس طيشاً وزهوّاً الاّ وطأطأ الرأس كمن يلتبهُ لمعنىً عميقٍ من أقدس معاني الحياة

إنّ عصرنا عصر الاختراع والآلات . فبالآلات هبط الإنسانُ إلى أعماق الماءِ ، وجعل لهُ أجنحةً تسابقُ طير

ألقيت في الحفلة التي أقامتها السيدات المصريات برئاسة حرم شعراوي باشا في فناء سراي الجامعة المصرية لمناسبة مرور عام على وفاة الفقيدة يوم ٣١ اكتوبر سنة ١٩١٩ .

السماءِ ؛ وبهـا استعبد عناصر الأرضِ ، وكشف أسرار الكهرباء . من البواخر العظيمة التي تحذفُ الأبعاد وتلاشي البحار إلى الساعةِ الذهبية الصغيرة التي نقيسُ بها الزمان ، في كلٍّ من أحوالنا نرى الآلات ممثلةً دوراً مهمّاً . لكنَّ هذا الجسم الأجوف القائم في صدر الإنسان ، هذا القلب البشريّ العجيب ، ما زال أتمّ الآلاتِ وأقواها ؛ بل هو أقدر من أعظم القواطر الحديدية على الإطلاق ، اذا جعلنا المقابلة على نسبةِ الحجم الصحيحة . آلاتُ الفولاذ والحديد، تلك الصناديد المعدنية التي تُزحزح الجبال ، وتُدمّر المدائن والحصون ، تملُّ العمل وتطلب الراحة ؛ وهذا الجبّار الصغير المخلوق من دم ولحم لا يعتريه إعياءٌ ولا سكون لأنَّ في وقوف حركتهِ انتهاءَ الحياة الجسمية ، وفي سكونهِ وراحتهِ شقاء العواطف البشرية .

وما كانت قوتهُ الوحيدة في تأدية وظيفته واستطراد النبض ليل نهـار على حساب ٧٢ مرة في الدقيقة ، ومئة الف مرة في اليوم ، وأربعين مليون مرة في السنة ، بل كانت قوتهُ الكبرى في ذلك المعنى الملتبس الشامل الذي أطلقهُ عليـهِ الثيوصوفيون والشعراء إذْ جعلوهُ هيكل العواطفِ والرغبات ومنهلَ الحبّ والإشفاق والمكارم . ليقـُلْ العلماءُ ما شاءُوا من أنّ العواطف تتولد في الدماغ. أما نحنُ صغار الخلائـق ، فحسبنا شعوراً بأن في رياض القلب تُغرّدُ أصواتُ الطرب ، وترفرفُ أجنحةُ الهناء ،

ساعة نكون من السعداء . وإنّ القلب منا يمسي صحراء محرقة ، تجولُ فيها لواعج الأحزان ، ويتعالى في تيهها نحيبُ الوداع والحسرات ، عندما نكون من التعساء . حسبنا علماً أنّ هذا القلب يُسيِّر العالم وإنّ من كان كبير القلب فهو في الحقيقة قائد العالم .

لقد تصلّب قلبُ الرجل قليلاً – أو كثيراً – في حرب الاقتصاد التي ما فتىء يشهرها في ميادين الحياة ، فلحق ببعض عواطفهِ جفافٌ وتوتّر هما من مقتضيات المنافسة والجهاد . على أنّ القلب ما زال مملكة المرأة ، وفي هذه المملكة الضيقة الرحبة تجتمعُ القوة والدّقة والكآبة والصفاء ، ويختلط التأمّلُ بالأحلام والقنوط بالرجاء . عندما لا يتكلمُ من الرجل غير صوت الطمع والتهديد والمفاخرة تسمعنَ في صوت المرأة أنيناً كأنما هو بقية زفرة أو تتمة بكاء . وحينما يعتزّ الرجل بإدراك ذروة السؤدد ، ونيل بعيد الغايات ، ترينَ المرأة منحنيةً على نفسها كمن ينحني على جرح بليغ ، ترينها منحنية على قلبها لأنّ شيئاً يظلّ ناتحاً فيهِ . وسواء في ذلك تلك العائشة في وسط الأبّهة والتبجيل والإعظام ، وتلك الحقيرة التي تتقاذفها عواصف الحاجة واليأس والهوان .

كان هذا القلب القدير يتلظّى مضطرماً في صدر باحثة البادية ، على مقربةٍ من ذكائها الفطري ، ولم تكن ألفاظها إلاّ شرار وميضهِ . به اختبرت البيئة المصرية في كثير من

مظاهرها ودرست المرأة المصرية في جميع أطوارها . ولما أنّ هالها ما شهدت من ذلٍّ وتعاسةٍ ، غمست قلمها في مدادٍ هو سيّال قلبها الناري ، وكتبت فصولاً خالدات . إنّ محاسن التنميق والإنشاء تُعجب وترضي إلى حين ، لكن يا لسرعان ما تُدرّج تلك المحاسن في أكفان النسيان ، لأنّ الطبيعة البشرية لا تحتمل الإعجاب المتواصل . أما الكلام المنطلق من القلب كقطع متّقدةٍ ، فيدخل في القلوب مباشرة بلا وسيط ويمتزج بها لأنه يعبّر عنها ، يمتزج بها حتى يصير جزءاً منها يأبى التفرق والانفصال .

وكما أصابت في لمس مواضع النقص وتشخيص العلل القومية ، كذلك رأت ببصيرتها النقية ، أصوب طرق الإصلاح اعتدالا ، وأقربها اتفاقاً مع سير الارتقاء الطبيعي ، وقارئ « النسائيات » يقف على خطتها الإصلاحية الرشيدة حيث لا يكون الرجل جائراً مستبدّاً ، ولا المرأة ساخطةً متمردة ، بل يتصافى الإثنان فتصير هي له أخلص الأصدقاء وأوفى المساعدين ، ويصبحُ هو لها أخلص الأصدقاء وألين المرشدين . فيسيرانِ في سبل الحياة ، وقد جعلها التفاهم متغلبين على المصاعب ، متعاونين على تبادل المنفعة والسعادة .

وذلك أقصى ما ترمي إليه العائلة الاجتماعية في كلّ زمان ومكان .

كانت الباحثة زوجاً لعبد الستار الباسل واستميحكن

بالوقوف قليلاً عند هذا الإسم . أذكرن أنها كانت تكتب في سنة ١٩٠٧ و ١٩٠٨ و ١٩٠٩ ، وتصوّرن حال ذلك الوسط منذ اثنتي عشرة سنة ، يوم كان القوم يرمون قاسم أمين بالكفر والإلحاد لأنه جنى هذا الاثم الفظيع الذي يدعى المناداة بإصلاح المرأة !

إن إعجاب الناس بامرىء لا يسلمُ من لازم متعدٍّ هو انتقادهم له . فإذا كان الجمهور شديداً على الرجل يحسب نقضه بعض بالي العادات عدواناً لبني الإنسان ، فما قولكنّ في ظهور امرأةٍ ذات رأي شخصيٍّ وذاتيةٍ حرةٍ في ذلك الوسط الرجعي ؟

يجب أنْ يكون الوسط راقياً جدّاً ليقدّر الفرد الراقي وإلاّ أهمله ، وعُـدّ نبوغه جنوناً ، ورأى في توجعه من التقهقر والانحطاط وقاحة وشروداً .

غير أنّ الباحثة كانت على حكمة مكنتها من استخراج الخير من الشر . فبدلاً من أنْ يغضبها تعنُّت الناقدين ، تجلت لها الحقيقة كما تتجلى أحياناً في لحظات الألم ، ففهمت أنّ الطريقة المثلى لتهذيب الرجل وإعلاءِ مداركه ، هي تهذيب المرأة وإعلاء مداركها ، وأنّ الواسطة الفريدة لجعل الشعب المصري حرّاً نبيلاً عظيماً ، هي تحرير الأم من قيود الغباوة والخمول ، وإفهامها جلال النبل القومي والعظمة الوطنية .

ولقد وجدت في قرينها منشطاً كبيراً .

إنهُ كان في وسعه أنْ يحطم قلبها بإشارة صغيرة ، وبكلمة واحدة كان يستطيع إسكات ذلك الصوت الفعّال .

بيد أنّ عبد الستار الباسل عربيٌ صميم ، ولهُ من وراثته الكريمة ما يذكّرهُ بما كانت عليه نوابغ النساء العربيات من حرية وأنفة ، ففاخر بأنْ تعيش في ظلّهِ من تماثلهن عزّة وبياناً .

فليسرْ إليه الآن شكر المرأة المصرية مقروناً بآي الثناء !

أمّا أنتِ ، يا أم الباحثة ، فلكِ أنقى ما في القلوب من احترام وإجلال ! وساعة تذهبين لزيارة حفني ناصف الراقد هناك في مدينة الذين رحلوا ، قولي لهُ : إنّ اسمه مجيد مرتين : مجيد بعلمه وفضله ، ومجيدٌ لأنه والد امرأة مجيدة .

هذا كلّ ما أردتُ أنْ أقول ، يا سيداتي .

وحول القلب الفتيّ الذي كان يذوبُ إشفاقاً على المرأة الضعيفة المعذّبة ، ويلتهب غيرة على مصر والمصريين ، حول الصوت الصامت الذي طالما ارتفع خطيباً ، والقلم الجامد الذي طالما تحرك كاتباً ، اجتمعنا اليوم ، المسلمة منا والقبطية والسورية ، لنحيّي أختنا الخالدة ولنمزج ذكرها بذكر هذه الأيام المملوءة حماسة وأحزاناً .

نعم ، المرأة المصرية التي انبرت بالأمس تهتف في الجماهير هتاف الوطنية والذ ر ، قد عقدت اليوم في هذه الجامعة

الأهلية المباركة ، اجتماعاً معزّياً في كآبته ، سامياً في معناه ، وحيداً من نوعه في تاريخ النهضة الحديثة لبنات هذا الوادي العظيم !

فليحمل الهواء حديث اجتماعنا إلى مَن لم تحضره من أخواتنا في القاهرة ، وفي الأرياف ، وفي الثغور ؛ ولينقله إلى نساء سوريا والعراق ، وسائر الأقطار العربية ، والأقطار الغربية ، التي ينشدُ نفرٌ من نزلائها أبياتاً نظمت بلغة القرآن ! ولتردد النساء اسم المرأة المصرية الكبيرة « باحثة البادية » فيكون هذا الإسم عنوان نهضتنا النسائية الجديدة وعربون تضامن الشرقيات على رغم تباعد الديار واتساع البحار !

الشجرة

هناك في قلب الصحراء يستظلُّ أهل البادية بالشجرة اليتيمة ، فيتذوقون بعد القحط والضنى خضرة الخمائل ، وهناء المروج . ثم يودعونها وقد أوجد الشكر عبادتها في قلوبهم ، فيعلقون على أغصانها ما في العنق من قلادة ، وما في المعصم من سوار .

* * *

بعد أنْ لبث الفكر العربيُّ حارس جنات العلم والأدب قروناً طوالاً ، عـاد فتجدّب مخصابُ الأرضين نحو ثلاثة قرون . إذْ ذاك جئت ، يا صاحب اليوبيل ، فكنت في الصحراء اليد الغارسة والشجرة المغروسة جميعاً . فنم اليوم ، أيها البستاني الكبير ، وراء طيات وشاح الخـلود ، بينما يتبارى أبناء سوريا حول ذكرك منشدين ، كما يجثو أبناء

أرسلت هذه الكلمة إلى لجـنة الاحتفال باليوبيل المئوي لبطرس البستاني ، وكانت اللجنة المذكورة قـد وزعت أوراق الدعوة على كتاب العالم العربي ليشتركوا عن بعدٍ بذلك الاحتفال الذي أقيم في الجامعة الأمريكية ببيروت في آخر شهر كانون الاول (دسمبر) سنة ١٩١٩ .

البادية أمــام الشجرة الظليلة شاكرين . نم اليوم عظيماً جليلاً ، يا بستاني حبّات الفضـــل والعرفان ، بينما هم يملـّقون على فروع مجدك الباذخ قلائـــد الثـناء وعقود الشكران !

ظل الاله الثاني

أيها السادة والسيدات ،

ليست هذه زيارتي الأولى لمدينتكم العامرة ، لأني تشرفت وجئتها قبل الحرب بشهر لمثل هذا الاجتماع . وإنْ لم يكن اليوم بينكم من يذكر الفتاة التي كانت يومذاك طفلة في عالم الفكر ، فانها هي مـا زالت تذكر بارتياح ما لاقته من أنس البشاشة ، وحسن الضيافة . وبعد أعوام ذاق فيها البشر ما ذاقوا من طعوم الأوجاع ، أراني سعيدة بالعودة، وأشكر لرئيس هذه الجمعية الهمام ، وحضرات أعضائها الأفاضل ، دعوتهم ، وأتوسع في الشكر قليلاً لأصل إلى الاستاذ سركيس الذي انضم إليهم في هـذه الدعوة التي مكنتني من المجيء لأجـدد تذكاراتي عندكم وأحيّيكم مرة أخرى .

على أنّ في تحيتي الواحدة عناصر شتى : فيها السرور بمرأى الرجل والمرأة متسابقين في إتيان المعروف . وفيها الثناء على نخوة القائمين بأمر هذه الجمعية أمحسنين كانوا أو عاملين . وفيها الاغتباط بمشهد المصري والسوري متقاربين

ألقيت في حفلة جمعية الاتحـــاد والإحسان السورية – للرجال والسيدات – بمدينة طنطا في ٢٩ شباط (فبراير) سنة ١٩٢٠ .

متآخيين في هذا النادي . ولكن فيها خصوصاً عنصراً فتيّاً يتسرب بارزاً في نبرات الخطيب وسطور الكاتب : هذا العنصر هو عنصر الأمل ، عنصر الحياة ، المتولد من اليقظة المصرية الحديثة .

خطوات واسعات خطـّت مصر في هذا العالم ، لا سيما في شأن المرأة . خطوات ترقبها بشغف وفخرٍ نفوسنا المرتوية من مياه النيل المقدس ، المستنشقة هواءً ما فتئت تبعث به آلهة الأهرام إلى أحفادها مصريّي القرن العشرين. وبهذا الأمل الذي يرى غد مصر عظيماً خالداً كأمسها — بهذا الأمل السعيد — أرفع صوتي هاتفة : لتحيَ مصر الحديثة !

أيها السادة والسيدات ،

على مقربة من الحياة السياسية والاجتماعية حياة أهمّ لأنهما بها يتكيفان ، وهي الصفحة التي تنتقش عليها جميع أعمال العمران . إلاّ أنها تتناول الناس فرداً فرداً دون أنْ تشمل الأقوام دفعة واحدة ، وبلحظة واحدة ، كما تفعل الحماسة الوطنية والحميات القومية .

تلك هي الحياة الاقتصادية ، وقوامها المال الذي يجعل الحقائق الخيالية حقائق محسوسة ، ويملأ البسيطة ببهجة المدنية ومنافعها ، وقد دعاه السيد المسيح الإلـه الثاني . وكما أن لله عز وعلا ضدّاً نسميه روح الظلام ، أو الشيطان، كذلك للإلـه الأرضي ، الإلـه الثاني ، ظل يتهادى بين

القصور والأكواخ على السواء ، ويهدد جميع الناس وهم أبداً منه هاربون ، ذاك هو شبح الحاجة ، شبح الفاقة .

إنه لشبح هائل نرى خيال قبضته السوداء في صفحات التاريخ وإليه ترجع أسباب الاضطرابات ، والقلاقل ، وكل ثورة شبّت في بلد فتركت صروحه أنقاضاً . وليست الفواجع العامة الكبرى بأشد هولاً من الفواجع الفردية الصغرى . فقد عذّب هذا الشبح أكثر أرباب الفكر والعلم والفنون ، وطالما أدمى أجنحة النبوغ بمخالبه ، وأوثقها بكتائفه ، وجعل صاحبها يعيش ضيق اليد ، مضعضع الشأن، ويقضي جوعاً وغمّاً . وإنْ لم يهبط الفقر بالجميع إلى هذه الدركة المدلهمة ، فإن الخوف منه يظل مستبدّاً بالناس استبداداً ، ويحتل حياتهم احتلالاً لا جلاء له يرجى . فذلك الوجه العابس هو وجه من يحاول التوفيق بين دخله وبين مقامه الاجتماعي ، أو راحة من يحب ؛ وتلك الجبهة المنحنية المقطبة ، هي جبهة الشاب الذي يكدّ منذ أعوام ليخطو إلى الأمام ، ولكن المال حاجته ، ليرسم على باب الدهر إشارة الظفر ؛ وتلك العيون التي تطوف فيها خيالات القلق والهواجس ، إنما هي عيون من عرف عز ثروته الفكرية والشعورية من جهة ، وعوزه الذليل إلى الدرهم من جهة أخرى ؛ وكم من عمل ممقوت وأمر مستهجن ، بل كم من مكر وخيانة ودهاء ، قد يأتيها المرء مرغماً وما كان الداعي إليها غير الحاجة أو تلافي الوقوع بين مخالب الفاقة .

فإذا كانت هـذه حال المتوسط والغني أحياناً ، فماذا نقول في أولئك الذين لا يطالبون إلاّ بنصيبهم مما تنبتهُ الأرض من غذاء ، وتدرّه من شراب ؟ مـاذا نقول في أولئك الذين أثقلتهم الحياة بحاجات الأحياء وبخلت عليهم بما يقوم بتلك الحاجات ويسد منها الفراغ ! ماذا نقول في عبيد الشـقاء الذين لا يعلمون لمـاذا يحيون ولأيّ غاية يتألمون .

ما أطيب الألم ، أيها السادة والسيدات ، إذا كان ذا نتيجة مخصبة ! ما أحبّ يد الشدة ، سواء أكانت يد حال أو يد إنسان ، التي تلطمنا لترشدنا وترقينا ! إنما في الجهاد والألم قيمة الحياة ، والدموع الراسبة في أعماق القلب تذيب منّا الغرور والكبرياء وتأتينا بالخبرة العجيبة التي تدنينا من جوهر الأشياء ، وتخرج منا الحكماء والأنبياء . فللحياة فضل علينا في كل جهاد تحرجنا إليه ، وفي كل حرمان تشعرنا به ، مـا دامت العقبات والصعاب واسطة لاتساع المدارك وإنماء الملكات . فمـا تجيء الكوارث وتروح إلاّ ونحن كذلك البحري الذي كافح الزوابـع ، أو كذلك الجندي الذي خاض معامع المنايا ، فخرج منها قوياً ظافراً.

بيد أنّ إزاء الألم النافع والجهاد المثمر نوعاً آخر من الألم يقتل الذكاء ، ويقطع أوصال الأمل ، ويضع بين شفتي الحيّ طعم الأكفان والقبور . ذاك هو الألم العقيم الذي لا نتيجة له كألم المعدمين العاجزين الذين لا يعولهم أحد ولا

يحبهم في الدنيا مخلوق . حتى اذا تجمّد ألمهم يأساً ، وتحجّر حقداً ، والتهب كرهاً انفجر بين الأمم حمماً وبراكين تدعى الاشتراكية المتطرفة ، والبلشفية ، والفوضوية ، والعدمية . فيهبُّ دعاتها منادين بالإخاء وما كانوا متآخين بغير التمرد والجهل القتال ، والرغبة في سحق من هو فوقهم طمعاً في ماله وجاهه . فيتلبون الحكومات ، ويقلقلون الأمان ، ويلغون الأنظمة ، ويسلبون الممتلكات ، وينصفون طائفة ليظلموا طوائف . كل ذلك باسم المساواة .

وما هي النتيجة يا ترى ؟

يوم تندكُّ عروش الأفراد وتقوم على أنقاضها أبنية الأمم ، يوم يتغلـّب العامل على صاحب رأس المال فيحرجه إلى ما يشاءُ وما فيهِ يرغب ، يوم تتمزّق أنظمة الأمس لتسنّ أنظمة الغد ، إذن هـل تتحوّلُ أنظمة الطبيعة ؟ كلا ! إثنان في الكون لا بدّ منهما لحفظ موازنة الكون وإنْ تغيرت منها الأسماء والأجناس : كبير وصغير ، تابع ومتبوع ، سائد ومسود ، ظالم ومظلوم ، مفترسٌ وفريسة ، هذا هو نظام الطبيعة العنيد ! ومن بـين هؤلاءِ المتمردين الثائرين ستتكوّن نواة تسود شيئاً فشيئاً ، فيمتد تحتها الذل والتعاسة من جديد ، ويثور قومٌ آخرون ، وتعود الفاجعة التاريخية مرّة أخرى ! يقولون إنّ الطبيعة أمٌّ ، فيا لها من أم عتية ، تسعد ولداً لتشقي أولاداً ، جاعـلةً حضنها الرحب ساحةً لأشد المعارك وأفظع الحروب !

لقد مرّت ملايين الأعوام ، وألوف الدهور ، والطبيعة صماء لا تلين لصراخ الضعفاء وزفير المتوجعين ، ونبضات قلبها الكبير لا تضرب إلاّ على وفــق نبضات القلوب المنتصرة ، وكأن أصواتها الكثيرة تهتف للصاعد سلم الغلبة، وتشجعه فيدوس على أعناق المندحرين متخذاً من جماجمهم مراقي يصل بها إلى القمة المنشودة . هذا هو ناموس تنازع البقاء وبقاء الأصلح : للقوي البقاء وللضعيف الفناء . ناموس جائرٌ إلاّ أنه قاهر وأحكامه ثابتة لا تتغير . ولكن ، ألا ُسكبت عليك البركات يا قلوباً سمت بكرمها ، فأدركت أنّ فوق نظام الظلم نظام الرحمة ! وأسبغت عليك النعم ، يا أيدي الشفقة والإحسان ، لأنك تكوّنين الحلقة الإنسانية الذهبية المتعالية على جور الطبيعة طموحاً إلى عظمة الألوهية !

عرفتم ذلك ، أيها القائمون بأمر هذه الجمعية المباركة ، فقمتم تساعدون بقوة المال ، وتسعدون بعطف المحبة . إن لرجال طنطا إسماً عاطراً غير أننا نفاخر باهتمامهم بالخير ، وإغاثة الملهوف أكثر من مفاخرتنا بمــا لديهم من ذكاء ووجاهة . وأنتن ، يا سيداتي نساء طنطا ، مشهورات عندنا بالجمال . غير أنّ عذوبة الحنو في المرأة أجمل من جمال الوجه وأبقى . وقيامها بالواجب نحو الآخرين أشرف من المطالبة بحقوقها . وحقكنّ أنْ تفعلن الأمرين معاً . طالبْن بالمعقول من تلك الحقوق فلا يبخل عليكن بها ، لأن للرجل العريق في السيادة جميع صفات السيد من كرم شامل ، وعقل

راجح ، وصدر رحب ، وعدل تام ؛ ونجاح المرأة متوقف على مهارة الطلب ، وعلى كيفية التصرف في الحرية المعطاة لها قليلاً قليلا .

ولكن المطالبة بالحقوق ، وإنْ حلالاً ، فهي دون أعمال البِرّ قيمة ومقاماً . تلك أنانية وهذه غيرية . تلك أخذ وهذه عطاء . والمعطي فوق الآخذ دواماً . تلك خصام وكفاح وهذه أجلى وأجمل مظهر للمفاداة الأخوية . ولئن كان تنازع البقاء واسطة لارتقاء الحيوان ، كما قال هكسلي ، فان المفاداة والتعاون أحد سبل الارتقاء للإنسان . هاكم النيل مادّاً يــــداً من أياديه البيضاء في مدينتكم ليروي الأراضي العطشى ، فبديهيٌ أنْ تتمثلوا به باسطين يد الكرم الأخوي في مجاهل التعاسة . وفي وسط ما يملأ العالم اليوم من دماء ودمار وخوف وضغائن . في وسط الصراع القائم بين الشعوب والشعوب ، وبين الأمم والحكومات ، وبين الدرجات الاجتماعية على اختلافهــــا ، في وسط هذه الزلازل المتكاثرة مهددة صرح المدنــــية بالخراب ، تظلُّ جمعيتكم هــذه نوراً من الأنوار الطاهرة ، المتألقة في سماء الحب الإنساني ، مُنسية ما يحيط بهــــا من ظلمات الفاقة والأحقاد والشقاء !

هذا الكتاب

ليس في الثلث الأول من القرن العشرين صوت أدبي نسائي أشجى من صوت مي زياده .

وليس من فكر كفكرها يلتمع فيضيء داعياً الى الحرية والتقدم مجاراة لركب الحضارة في شتى الميادين والسبل .

وهي في كل ما كتبت تجسد طموح الأقلام المستنيرة إلى التجديد الأدبي إبداعاً في الشكل التعبيري وفي المضمون الفكري ، فضلاً عن أنها تجسد طموح المرأة العربية إلى الحياة وطموح الأمة إلى الوصول في حركة العصر وبناء المجتمع .

كلمات وإشارات (١) مجموعة من الخطب والمقالات ألقتها مي في مناسبات عديدة وفي موضوعات مختلفة لا سيما موضوع المرأة الشرقية وحقها في الحياة ودورها في بناء المجتمع والوطن وهي في موضوعاتها من أرق أدب مي وأصفى أفكارها وأبلغ ما بثته ريشتها .

الناشر

الثمن ٨ ل . ل .